لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

مستقبل الإسلام

تعريب

شعبان بركات

ليسانسيه في الآداب

مدرس الادب العربي في كلية المقاصد الاسلامية في صيدا
وفي الكلية الجعفرية في صور

الناشر: المكتبة العصرية - صيدا وبيروت

مالك بن نبي

مستقبل الإسلام

منشورات
المكتبة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

المطبعة العصرية
للطباعة والنشر
صيدا - لبنان

ان الارض يرثها عبادي الصالحون

(قرآن ، ۲۱ ، ۱۰۵)

إهداء الكتاب

الى اخي الدكتور أ . خالدي

الذي يدين له هذا الكتاب بعنوانه
كما ادين له انا بالشيء الكثير

المؤلف

تنبيه

يظهر اليوم كتاب « مستقبل الاسلام » بعد مضي اربع سنوات على كتابته بدون اقل تغيير فيما يتعلق بالحوادث التي وقعت خلال هذه المدة، ما عدا بعض الملاحظات الضرورية التي اضفناها في اسفل الصفحات وارخناها بعام ١٩٥٤ .

فاذا كانت الموضوعات التي طرقها المؤلف اثر ازمة فلسطين لا تطبق على الاوضاع الحاضرة في البيئة الاسلامية فليس هناك من توضيح يجعلها مجدية بالنسبة لهذه الاوضاع .

وأما إذا كانت هذه الموضوعات لا تزال ممكنة التطبيق فلسوف يحكم القاريء على جدواها كلما استطاع تطبيقها على الحوادث الجديدة.

وعلى كل فان تاريخ العالم الاسلامي اليوم لا يقوم على اية مؤامرة اجنبية تشل بعثه مدة من الزمن ، بل ان هذا التاريخ يقوم على الجهد الخفي المستمر الذى تبذله حيوية هذا العالم الداخلية . ولهذا فقد حاول المؤلف ان يوضح ذلك الجهد ويتبين توجيه هذه الحيوية في الصفحات التي نضعها أمام نظر القاريء .

حزيران ١٩٥٤ م . ب

فاتحة الكتاب

كنت قد رسمت الخطوط الكبرى لهذه الدراسة حين اطلعني احد اصدقائي ، وكان على علم بدراستي هذه ، على مؤلف الاستاذ هـ . أ ر . جب H . A . R . Gibb الرائع الا وهو كتاب «النزعات الحديثة في الاسلام» (١) . وكان موقف الكاتب الكبير يتفق وموقفي بازاء كثير من المسائل بالرغم من التفاوت الكبير بين كفاءة كل منا .

فهل كان يجب علي اذن ، نظراً لهذا التشابه بيننا ـ لا سيما فيما يختص بالفصل الثاني والثالث من كتابي . ان اكتفي بارشاد القاريء الى كتاب استاذ اكسفورد ؟ لقد آثرت ، على العكس ، اتباع طريقي الخاص معتمداً على هذا المرجع ، الذي هو خير ما اعتمد عليه للدفاع عن نظريتي .

غير انه يبدو لي من الضرورة الاشارة الى بعض وجوه الاختلاف بيننا لكي لا اعود اليها ثانية وقد اخذت على نفسي الامتناع عن كل محاجة فانا لا اعتقد ان مذهب « الذرة » الذي يمتاز به الذهن بعد عجزه عن التعميم ميزة خاصة بالذهن العربي كما يقول المستشرق الانجليزي الفاضل بل ان ذلك ميزة عامة للذهن الانساني قبل بلوغه درجة معينة من النمو والنضج الفكريين او بعد تخطيه لهذه المرحلة . . . وإذا اردنا الدقة لقلنا ان الذهن الاستنتاجي يقع بين مرحلتين من مراحل التطور التاريخي تمتازان بانتشار مذهب اهل « الذرة » .

وهكذا نرى ان الفكر يميل الى الاخذ بهذا المذهب في اول مراحله كما حدث في اوروبا في العصر السابق على ظهور ديكارت . ولسوف

(١) نقل هذ الكتاب الى اللغه العربية :

تعود اوروبا اليه بعد جمود الفكر فيها كما هو شأن العصر اللاحق على ابن خلدون في العالم الاسلامي .

غير ان التراث القيم الذي خلفته المدنية الاسلامية الى المدنية الحديثة يعبر عن طابع آخر للذهن الاسلامي في عصور ازدهاره : فلقد امتازت المدنية الاسلامية باحساسها العميق بالقانون، ذلك الاحساس الذي يدل على القدرة على التركيب فوُضعت النظريات التشريعية اعتماداً على موضوعات «الاصول» الرئيسية . وهكذا نرى ان القانون الاسلامي يبدولنا ، لاول مرة في تاريخ التشريع ، كمذهب فلسفي يقوم على مبادىء اساسية بينما لم يكن القانون الروماني سوى مجموعة من الطرق القانونية التجريبية .

ويمكننا الاشارة ايضاً الى اكتشاف ابي الوفا ، في علم الفلك للتغير في حركة القمر كما يرجع الفضل لابن خلدون في انه كان اول من اوضح قوانين التاريخ وعلاقاتها باوجه النشاط الاجتماعي .

ونحن لا نشارك العالم الانجليزي في ارائه حول « النزعة الانسانية » التي يتبينها بحق في الحركة الحديثة الاسلامية ، ويرجعها لتأثير الحضارة الاوروبية . وذلك لانه يجب علينا ان نتفاهم اولا على معنى الالفاظ . فاذا كنا هنا بصدد نزعة انسانية مجمعية دبلوماسية اعترفنا بان الفاظ النزعة الانسانية الحديثة رائعة وان بعض الاقوال الذائعة والجمل الساحرة قد اغنت متاع بعض المسلمين المحدثين اللغوي . بيد انه ربما كان من الافضل بحث الوقائع وليس الكلمات والمقابلة بين النزعة الانسانية واصولها الحقيقية التي تقوم على السماحة والايثار واحترام الشخصية الانسانية .

ولن نقوم هنا بمثل هذه المقابلة فليس هنا مكانها ، تلك المقابلة التي يجب ان تعتمد ، فيما يتعلق بالنزعة الانسانية المسلمة على التذكير بالقيمة

الدينية التي يهبها القرآن للفرد كما اشرنا الى ذلك في دراستنا عن «الظاهرة القرآنية» في الفصل الموسوم «بالعلاقة بين القرآن والعهد القديم».

كما يجب ان نذكر دعوة ابي بكر للجيش الاسلامي إلى احترام الاعزل من السلاح والراهب والحيوان والزرع (١)

ولا شك انه يجب الاشارة الى موقف عمر بعد سقوط القدس حين رفض تخطي عتبة المعبد بل اكتفى بوضع جبينه فوقها بخشوع فأمن بذلك المسيحيين من تعدي الجنود المسلمين.

ولا يسعنا إلا ان نفكر بما امتاز به العلم الاسلامي من سماحة في عصر ازدهاره حين كان ملكاً مشاعاً بين الفكر الانساني. فكان الجندي المغولي الذي يصحب جنكيز خان يستفيد منه بحرية كما يستفيد الراهب جربرت Gerbert او اليهودي ابن ميمون.

فاذا ما رأينا ان المدنية الاوروبية الحاضرة تتكرم بعلمها على البلاد المتأخرة ـ او التي اخرتها على الاصح ـ بزهو وكبرياء عز علينا ان ننسى ان بعض المفكرين المسلمين قد عانوا السجن من جراء ذلك.

فما حاجة العالم الاسلامي في مثل هذه الحالة، إلى ان ينهل النزعة الانسانية من منبع غير منبع سنة القديمة.

ولا شك اننا نستطيع تحديد نوع من النزعة الانسانية ينزع بنا نحو الداخل وتعنى حينئذ نزعة اوروبية في الباطن استعمارية في الظاهر. وتقوم هذه النزعة الاستعمارية على اشد المعادلات السياسية خزياً الا وهي ان الانسان إذا ما ضرب بالعدد المستعمر ساوى انساناً محلياً (Indigène)

ومهما يكن الامر فان كتاب العالم الانجليزي يستحق عناية المسلم الذي يهمه ان يوضح افكاره وان يقوم بتقدير قيم نهضته تقديراً موضوعياً

---

(١) يختلف ذلك عن طرق الحرب في البلاد التي تدعي المدنية.

كمايقوم بتقدير ما ليس بقيمته في هذه النهضة وهو من العناصر الاساسية في فوضى العالم الاسلامي .

يشير جب الى «النزعة الحرفية» التي اشرنا اليها بلفظ «الامية» (١) كما ان اشارته الى الميل الى الاطراء والمديح والاغراق في الرومانطيقية الذي تمتاز به حضارتنا عند بعض كبار المفكرين المحدثين يزيد من اهمية كتابه في نظر من يعتقد ان «الحقيقة» هي الدافع الى التقدم وذلك لان الاطراء والمديح انما هما تنكر لهذه الحقيقة وللتاريخ نفسه .

وإذا كنا نتنكر للحقيقة في التعظيم من شأننا فاننا نتنكر لها ايضاً في التقليل من هذا الشأن .

ولهذا يبدو ان «جب» لم يشر الى مركب النقص عند بعض المفكرين والزعماء المسلمين .

ويهمني ان اكرر القول بان كتاب الاستاذ الانجليزي الكبير كان مرجعاً ثميناً اعتمدت عليه في هذا البحث لدراسة الناحية المرضية في العالم الاسلامي. واني لآمل ان تلقى موضوعات هذا الكتاب ما تستحقه من التمعن عند كثير من المسلمين الذين يقدرون مثلي نزاهته الفكرية ، تلك النزاهة التي استطاعت ان تسمو على كل مركب ديني او سياسي .

---

(١) راجع كتابنا السالف «شروط النهضة» .

١

مجتمع ما بعد الموحّدين

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت »

(٢ ، ١٣٤)

الدَّورة التَّاريخيَّة

« وتلك الايام نداولها بين الناس »

(٣ ، ١٤٠)

يمكن ان ننظر الى التاريخ من نواحي متعددة فهو ينتمي لعلم النفس على اعتبار انه دراسة للانسان كعامل نفسي زمني في بناء المدنية .

غير ان هذه المدنية ليست سوى مظهر من مظاهر الحياة والفكر الجماعي وبهذا ينتمي التاريخ لعلم الاجتماع لانه دراسة للظروف التي تسيطر على تطور فئة اجتماعية ما ، ذلك التطور الذي لا يُحدد هنا بواسطة الاصول العنصرية او السياسيه بل عن طريق العوامل الاخلاقية والفنية والصناعية التي تمتاز بها هذه المدينة.

هذامن جهةومن جهة ثانية فايست هذه الفئة الأجتماعية منعزلة بل ان تطورها يتأثر بعلاقتها مع سائر افراد النوع البشري ، ولهذا ينتمي التاريخ الى ما وراء الطبيعة وذلك لان غايته هنا تتعدى ميدان السببية التاريخية وتلم بالحوادث في غائيتها .

اتخذنا في دراسة سابقة موقف الفرد كي نبين الشروط التي يجب على الفرد توفيرها لتطور المدنية ، ذلك التطور الذي يبقى هو العامل الفعال فيه

ونتخذ هنا الموقفين الاخيرين لكي ندرس تطور العالم الاسلامي الحديث وما بين هذا التطور وسير التاريخ الانساني العام من علاقات فعلية اوممكنة.

وانه لمن الصعب معرفة اصول سير التاريخ الانساني العام في المكان والزمان . ولا يجدينا التساؤل عما اذا كان سير التاريخ قد بدأ في مصر او في غيرها من البلدان شيئاً .

وكل ما يهمنا هو التأكد من استمرار سير التاريخ عبر الاجيال. حتى اذا ما حاولنا وضع حدود هذا السير تبين لنا انه يحيط بمنطقة تنتقل من مكان لاخر . ولهذا يمكن ان يبدو لنا هذا الاستمرار الذي شاهدناه في مجرى التاريخ انه متقطع اذا ما نظرنا الى مناطق المدينة المتعددة . نحن هنا اذن امام مظهرين اساسيين في هذا التطور : المظهر الميتافيزيقي او الكوني الذي هو عبارة عن تقدير عام وغائية شاملة والمظهر التاريخي الأجتماعي الصرف الذي هو عبارة عن اتصال الاسباب بعضها بالبعض الآخر .

تبدو لنا المدنية في مظهرها هذا الاخير كسلسلة عددية تتتابع متشابهة وان لم تكن متماثلة ، فيظهر لنا بذلك مظهر اساسي من مظاهر التاريخ الا وهو «دورة المدنية »

وتتحدد كل دورة بالشروط النفسية والزمنية التي تمتازبها فئة اجتماعية ماولهذا تتخذ المدينة طابعا معينا .

ثم تهاجر المدنية وتنتقل بقيمها الى منطقة اخرى وهكذا تستمر في ترحالها اللا نهائي تعتريها تغيرات متتابعة يكون كل واحد منها عبارة عن مركب خاص من الانسان والارض والزمان .

يحدث غالبا ان تشوه النظرة التاريخية ، كما فعل توسيديد حين ازال كل تاريخ الانسانية في قوله «انه لم يحدث اي حادث مهم في العالم قبل

عصره » . فتنشأ عن هذا حضارة الامبراطورية التي تغذي اساطير العنصر الحاكم والاستعمار الممدن .

كما أن الفكر الماركسي في حكمه بان التطور التاريخي والاجتماعي يبدأ بالحيوانية البدائية ويتجه نحو عهد الرخاء والوعي والحرية انما يهمل فكرة الدورة الاساسية . كما تتعارض الغائية التي تكمن وراء هذه النظرة والمبدأ الاساسي في جدليته الماركسية.

كان ابن خلدون اول من قال بفكرة الدورة التاريخية في نظريته عن « الاجيال الثلاثة » ورغم ضيق هذه النظرية التي تستوحي المعطيات النفسية الاسلامية فانها تدعونا الى الاشارة الى مظهر المدنية الزمني فلا نرى فيها سوى تتابع ظواهرعضويةلكل منها بداية ونهاية في مكان معين.

وتأتي اهمية هذه النظرية من انها تتيح لنا الأعتماد ليس فقط على ظروف التطور المستمر بل على عوامل التقهقر والانحطاط التي تمثل قوة الجمود في كل مدنية . كما انها تساعدنا على الالمام بجميع مراحل المدنية المتشابكة في نموها الحيوي فنرى ان اسباب الحياة والموت تسير بالكائن نحو الكمال ثم الفناء النهائي .

اما في الميدان الاجتماعي فان هذه الحتمية محدودة وذلك لان مغزى التطور ونهايته انما يتعلقان بالعوامل النفسية والزمنية التي يمكن للمجتمع المنظم ان يؤثر فيها وذلك بتنظيم حياته ومتابعة السعي لبلوغ غايات معينة بصورة منسجمة .

كل ذلك يؤدي بنا الى عدم الاخذ بالعادة القائمة على الفصل بين كل من « المدنية » و « الانحطاط » .

ويحتاج العالم الاسلامي بهذا الصدد الى افكار واضحة تنير امامه الطريق في نهضته .

ولهذا يجب ادراك الاسباب البعيدة التي سببت انحطاطه . فلقد شهد العالم الاسلامي اول تفسخ فيه في معركة صفين سنة ٣٧ هجرية وذلك لانه كان يعاني ـ رغم حداثة مولده ـ تعارضاً داخلياً فيه. هذا التعارض هو النضال بين روح الجاهلية وروح القرآن فكان ان قضى معاوية الفاتر الايمان على هذا التوازن بين الروح والزمن .

فقد العالم الاسلامي منذ هذا التفسخ توازنه الاولي بالرغم من استمرار المسلم في تعلقه بعالم الروح الكائن في نفسه المؤمنة . وانه لمن البديهي اننا ندين لهذه المدنية المنحرفة التي ازدهرت في دمشق في عهد الامويين باكتشاف النظام المئوي وتطبيق المنهج التجريبي في الطب واستخدام فكرة الزمن الرياضية . وجميع هذه الاشياء انما هي المراحل الاولى في الفكر العلمي (١)

ولربما اكتشفنا في يوم من الايام ان « تفاحة نيوتن » التي اوحت للفلكي الشهير بالجاذبية الكونية ليست بعيدة عن ابحاث الاخوين ابني موسى (٢)

ومع ذلك فليست هذه المدنية المتلألئة من الناحية العضوية التاريخية

---

(١) كان العرب اول من استعمل الساعات المتساوية فقد كان اليونان والرومان قبلهم يقسمون الزمن الى قسمين غير متساويين : ١٢ ساعة نهارية و ١٢ ساعة ليلية تختلف عنها .

(٢) البكر محمد بن موسى شاكر الف كتابا عن قوة الجاذبية وقد توفي عام ٨٧٣ م .

سوى تشويه للتوازن الاصلي الذي حققته القرآن القائم على توازن كل من الروح والعقل عـــلى اساس اخلاقي مادي ضروري لكل بناء اجتماعي خالد .

لم يعش العالم الاسلامي بعد هذه الازمة الاولى في تاريخه إلا بفضل ما بقي فيه من الدفعة الحية القرآنية . فقام على رعايته رجال من امثال عقبة وعمرو بن العزيز والامام مالك وليس ذلك لان الاول كان فاتحـــاً عظيما والثاني ملكاً كبيراً والثالث زعيم مدرسة مهمة في التشريع بل لانهم قد تجسدت فيهم فضائل الاسلام الكبرى البسيطة .

فلنستمع لعقبة يهتف بعد تقبيله لاولاده وهو يهمز فرسه قبل انطلاقه من ضواحي عاصمة (١) الفاطميين المقبلة
على رأس الجيش الاسلامي لفتح افريقية الشمالية . كما ان عمر بن عبد العزيز، بعد أن رأى من الظلم الاستئثار بالحكم الذي يجب ان يعود لاحفاد علي ، قد آثر التخلي عن هذا الحكم . اما مالك فقد عانى الجلد في المحلات العامة لمعارضته للسلطة المستبدة .

تلك هي الفضائل ـ القائمة على احتقار المجد ورفض السلطان ومجابهة الظلم ـ التي حفظت في العالم الاسلامي خميرة الحياة التي وضعها القرآن فيه.

وهكذا ندرك سبب اهتمام محمد العالم الاجتماعي الكبير بالفضائـــل الاخلاقية على انها قوة اساسية في بناء المدنيات .

غير أن القيم تنقلب اوزانها في عصور الانحطاط لتحل محلها الترهات التافهة . حتى اذا ما جدث هذا الانقلاب تدهور النظام الاجتماعي وذلك

---

(١) تأسست القاهرة عام ٩٦٠ م على يد الفاطميين .

لعجز كل من الفن والعلم والعقل عن حمايته ولان الروح وحدهاهي التي تتيح للانسانية السمو والارتفاع .

فحيثما فقدت الروح كان السقوط والانحطاط ذلك لان كل من يفقد قوته التصاعدية لا بد له من الانحدار بتأثير ثقله الذي لا يقاوم .

فاذا ما وصل المجتمع الى هذه المرحلة من تطوره وخمد النفَس الذي بعث الحياة فيه لاول مرة ، ادرك نهاية الدورة التاريخية وهاجرت المدينة الى منطقة اخرى تبدأ فيهادورة تاريخية جديدةتعتمد على تركيب عضوي تاريخي جديد . ويفقد العلم في المنطقة الفارغة كل معنى له فحيثما خمد اشعاع الروح كف نشاط العقل حتى لكان الانسان يفقد تعطشه الى المعرفة والعمل اذا ما فقد الاندفاع الذي يبعثه فيه الايمان .

يزول العقل لان آثاره تموت في مجتمع لا يستطيع فهم هذه الآثار او استخدامها . ولهذا يبدو أن مؤلفات ابن خلدون كانت اما «مبكرة» « او متأخرة» جداً على عصره .

وذلك لانها لا تستطيع الاندماج في العبقرية الاسلامية التي فقدت قدرتها على التقدم والتجدد . حتى اذا ما خفت الدفعة القرآنية توقف العالم الاسلامي كما يتوقف المحرك الذي استهلك آخر ليتر من البترول .

ولم تستطع اية قوة زمنية ان تحل خلال التاريخ محل الايمان الذي هو المصدر الوحيد للطاقة الانسانية .

فلا النهضة التيمورية التي ازدهرت في القرن الرابع عشر في سمرقند ولا الامبراطورية العثمانية استطاعتا ان تبعثا في العالم الاسلامي هذه الحركة التي فقدها فيه .

حتى اذا ما بلغت التعارضات الداخلية اوجها أفضت الى نهـايتها الحتمية الا وهي تفسخ عالم وظهور مجتمع جديد له طابع جديد ونزعة جديدة . فاقبلت بذلك مرحلة الانحطاط ولم يعد الانسان ولا الارض ولا الزمان عوامل مدنية بل معطيات جامدة لا صلة خلاقة بينها .

يستحسن هنا ان نزيل بعض الغموض والابهام وذلك لان الايمان لم يفقد سيطرته في العـالم الاسلامي حتى في عصر الانحطاط . ولهـذه الملاحظة اهميتها واذا ما اردنا ان نقدر القيم الروحية تقديراً نهائياً .

غير أننا اذا أردنا النظر الى المشكلة نظرة تاريخية اجتماعية كان لا بد من الفصل بين خلاص النفس الفردية وبين تطور المجتمعات . فليس دور الدين هنا إلا كعنصر يساعد على تغير القيم التي تنتقل من حالة طبيعية الى حالة نفسية زمنية في مرحلة معينة من مراحل المدنية . ويجعل هذا التغيير من الانسان العضوي وحدة اجتماعية كما يجعل من الزمن الذي هو عبارة عن مدة تقدر بالساعات العابرة زمناً اجتماعياً يقدر بساعـات العمل وكذلك يجعل من الارض التي تمد الانسان بالغذاء ارضاً مزودة بجميع وسائل العلم ومعدة لسد حاجات الحياة الاجتماعية المتعددة حسب شروط عملية الانتاج .

الدين إذن هو العامل المساعد على وجود القيم الاجتماعية في مرحلة نشوئه وامتداده حـين يعبر عن فكر اجتماعي . فاذا ما اصبح الايمان منطويا على نفسه وكف عن الاشعاع وصار فردياً انتهت رسالته التاريخية على وجه الارض وعجز عن بناء المدنية .

فيصبح الايمان أيمان الاتقياء الذين ينعزلون عن الحياة ويتنصلون

من واجباتهم ومسؤولياتهم كما فعل منذ عهد ابن خلدون الذين لجأوا الى مذهب المرابطين .

يبدأ التاريخ بالانسان الذي يوفق دائمـــاً بين مثله الاعلى وحاجاته ويقوم في المجتمع بدوره كممثل ومشاهد .

ولكن التاريخ ينتهي بالانسان المتفسخ الذي يصبح جسما فقد مركز الارتكاز الذي يدور حوله . فهو فرد يعيش في مجتمع منحل لا يمده في وجوده لا بالقاعدة الاخلاقية ولا بالقاعـــدة المادية . فيرتمي حينئذ في احضان نزعة المرابطين او في اية نزعة يفنى فيها كالنرڤانا مثلا . وليست هذه النزعات سوى صورة ذاتية لحالة الانهيار الاجتماعي .

انسان ما بعد الموحّدين

«يا للمصيبة ! لقد ازف الزمن الذي لا يرسل فيه الانسان من فوق اخوانه البشر بسهم رغبته ، « وتكف فيه اوتار قوسه عن الرنين »

(نيتشه)

اذا ما حللنا نشاط الافراد في مجتمع ما واذواقهم وجدنا أنهم يمتازون بصفات مشتركة بينهم يتوارثونها جيلا بعد جيل . فهناك وراثة اجتماعية كما ان هناك وراثة عضوية .

نرى ذلك في انجلترا حيث نلقى الميل الى المحافظة . وتظهر هذه النزعة الى المحافظة في عصر انحطاط العالم الاسلامي فنجد جميع المرافق الاجتماعية قد استسلمت الى الجمود .

وليس هذان المظهران للوراثة متماثلين فالمظهر الاول يدل على القدرة بينما يدل المظهر الثاني على العجز .

فالانجليزي ميال الى بعض التقليد الذي يراه ضروريا للمحافظة على التوازن القومي ولكن هذا التوازن حيوي . اما في المجتمع الاسلامي فنحن بازاء عجز عن تخطي الواقع وتعدي المعلوم واجتياز مراحل جديدة تمثله . لسنا هنا اذن بازاء تجديد بل بازاء نقص .

تتكون اعمال الفرد وافكاره ضمن اطارات اصيلة متوارثة في كل من الحالتين . وما علينا الا ان نشاهد طفلا اثنـــاء لعبه لندرك اهمية الوراثة الاجتماعية وقوتها الموجهة . فتظهر لنا جميع تقاليد مجتمع مـــا في لعب طفل من الاطفال : وهو أول شكل بدائي لنشاط الانسان التلقائي .

ونرى نفس الميزات حيثما تجمدت الحياة الاجتماعية في اشكالها الفنية والاخلاقية والصناعية .

وكذلك اذا ما درسنا اوجه النشاط في بلد ما وجب علينا وصل هذه الاوجه – كي نفهمها – بمنطقة المدنية حيث اتخذت الحياة نفس الاوضاع وحيث كون الانسان افكاره وافعاله في نفس القوالب منذ عصور عديدة.

وذلك لأن «ساحر الحيات» لا يبهر اطفال سمرقند ومراكش بدون سبب. يعني ذلك ان المشكلة الاسلامية واحدة ليس ذلك في تنوعاتها السياسية او العنصرية بل في اساسها اي في الميدان الاجتماعي .

ويدعونا ذلك الى تحديد تاريخ هذه المشكلة بصورة نستطيع معهـــا تحديد وصفها التاريخي . ولهذا لم يكن القول بان العالم الأسلامي لايعيش في عام ١٩٤٩ (١) بل في عام ١٦٣٩ غرابة لغوية بل ضرورة جدلية .

لا بد من الاشارة الى هذا التاريخ لانه بداية تطور تاريخي تعود اليه جميع معطيات العالم الاسلامي ،وما يتفرع منها من «مشكلة جزائرية» او «مشكلة اندونسية» .

والقاسم المشترك بين جميع هذه المشاكل هي المشكلة الاسلامية وتسلسلها التاريخي منذ الهجرة . فاذا ما مثلنا سير هذا التسلسل بخط منحن عثرنا في

---

(١) تاريخ تأليف الكتاب . المعرب

مكان ما من هذا الخط عـــلى نقطة تقع حوالي عصر ابن خلدون انقلبت عندها القيم الاسلامية الى قيم لا وزن لها .

ولم يكن هذا الانقلاب فجائياً بل هو نهاية البتر القديم الذي حدث في صفين وأحل السلطان الملكي محل السلطان الديمقراطي الخليفي وفصل الدولة عن الضمير الشعبي (١) وذلك لان هذا الانفصال كان نذيراً بجميع الانفصالات المقبلة والتناقضات السياسية المتأخرة داخل الاسلام .

واذا نظرنا الى الحوادث من الناحية السياسية بدا لنا هذا الانفصال الاول كأزمة من الازمات التي تغير عبر التاريخ نظام بلد من البلـدان ؛ ثم يأتي زمن ليس فيه من فرد يقوم على حفظ السلطان والاستيلاء عليه للتوفيق بينه وبين النظام الجديد . فاذا بالصولجان يهوي من تلقاء نفسه ويتحطم فيسارع صغار الملوك الى الاستيلاء على اشلائه المتناثرة .

هذه الفترة من التطور التاريخي هي فترة انقلاب القيم في مدنية ما ؛ وذلك لاننا لسنا هنا بصدد انقلاب سياسي بل نحن بازاء الانسان نفسه حين يفقد هذا الانسان المتمدن دفقة المدنية فيه ويصبح عاجزاً عن التمثل والابداع .

كما اننا لسنا هنا بازاء النظم بل بازاء العامل الانساني حـــين يعجز الناس عن استخدام عبقريتهم للاستفادة من ارضهم وزمانهم ؛

فيتحلل المركب الاساسي وتتحلل معه الحياة الاجتماعية الـــتي تحل محلها حياة الجمود .

---

(١) يكون الروح الديمقراطي الذي تنشره ثورة محمد نجيب في البلاد الاسلامية وعياً شعبياً جديدا يطالب بحقه في الاشراف على شؤون الدولة .

نستطيع تأريخ مثل هذه الظاهرة في التاريخ الاسلامي بسقوط عائلة الموحدين الذين سقطت معهم مدنية كانت في الرمق الاخير .

فبدأ عصر الانحطاط بانسان ما بعد الموحدين . وقد اصبحت القيروان في زمن ابن خلدون قرية حقيرة بعد ازدهارها على ايام الاغالبة حين كانت عاصمة الدولة فبلغ عدد سكانها المليون نسمة . وكان كذلك مصير بغداد وسمرقند في الطرف الآخر من العالم الاسلامي . فبدت في كل مكان دلائل الانحلال العام التي تشير الى نقطة الانحناء في سير المدنية الاسلامية .

أما من الناحية الاجتماعية فقد كانت الدلائل التي تبدو في ميدان الاجتماع او ميدان السياسة تعبيرا عن حالة مرضية يعانيها الانسان الجديد ، انسان ما بعد الموحدين الذي جاء بعد انسان المدنية الاسلامية ، والذي كان يحمل معه جميع البذور التي ستنشأ عنها جميع المشاكل التي سيصطدم بها العالم الاسلامي .

وترجع أسباب جميع العراقيل الحالية التي تعترض سير النهضة الى هذا الانسان . فهو ليس فقط السلف الذي ندين له بوراثتنا الاجتماعية وبالقوالب التقليدية لنشاطنا الاجتماعي بل هو معاصر لنا ايضاً . وليس هو الباعث على اخطائنا الحاضرة بل اشترك أيضاً في ارتكابها . كما انه لم يورثنا فقط نفسيته التي تولدت عن افلاس اخلاقي واجتماعي وفلسفي بل توالد هو أيضاً .

وتكمن صورة هذا الماضي في الاجيال الحاضرة فنلقاها بشكل ساذج عند الفلاح الحضري البسيط والراعي البدوي الشديد الكريم كما

نلقاها بشكل صلب عند ابن صاحب الملايين وعند حامل البكالوريا الذي اخذ في الظاهر بجميع أسباب الحياة الحديثة .

ولربما اضفت عليه البكالوريا او ملايين ابيه مظهر «الانسان الجديد» بيد أننا إذا ما سبرنا غور عاداته وعواطفه وأفكاره تبين لنا بسهولة انه ليس سوى « انسان ما بعد الموحدين »

طالما لم يصل مجتمعنا الى القضاء على هذا الميراث السلبي الذي ورثه عن اسلافه منذ ستة قرون وطالما لم يصل الى تجديد الانسان حسب السنة الاسلامية الصحيحة وتجربة ديكارت فسوف يظل يبحث بدون جدوى عن التوازن الضروي لمركب جديد في تاريخه .

ان علوم الاخلاق والاجتماع والنفس اشد ضرورة اليوم من علوم المادة التي هي خطر على مجتمع لا يزال الناس فيه يجهلون أنفسهم . غير ان معرفة انسان مدنية ما وتهيئته تظل أصعب طبعاً من صنع محرك أو تدريب قرد على وضع ربطة عنق .

يظل انسان ما بعد الموحدين على كل حال ـ سواء كان باشا أو شبه عالم او شبه مفكر او شحاذاً ـ العنصر الاساسي لجميع مشاكل العالم الاسلامي منذ انحطاط مدنيته .

فيجب علينا أن لا ننسى هذا العنصر لاسيما في دراستنا لنشأة المشاكل التي تشغل اكثر فأكثر الضمير الاسلامي وما يعرض لهذه المشاكل من حلول .

وانه لمن الضروري على الاقل أن تكون جميع أوجه النشاط التي تدل على يقظة الضمير الاسلامي في جميع نواحي الحياة الاجتماعية جواباً على

نظرية عن العوامل السلبية والاسباب الغير المجدية . واذا كان لا يسهل دائماً معرفة انسان ما بعد الموحدين كما لو كان على شكل آغاخان فانه مع ذلك يمثل قابليته لان يصبح مستعمَراً :

فهو بهذا انموذج عهد الاستعمار والمهرج الذي يعهـــد اليه المستعمِر بدور « المواطن المحلي » فلا يستنكف عن القيام بأي دور يُعهد به اليه ولو كان هذا الدور دور الامبراطور اذا اقتضى الامر ذلك .

الاتصال الأول بين أوروبا والاسلام

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

استمد الاوروبي غذاءه منذ العصر الصخري من الارض . وقد نمّت فيه هذه الضرورة الحيوية جميع الاصول الاساسية لبناء مدنية زراعية او مدنية الاعشاب كما يقول عالم اجتماعي فرنسي .

وحققت هذه المدنية منذ عصر مبكر التوازن الاساسي بين الانسان والارض . فأقام الانسان في هذه الارض المعدة لأقامته تنظم حياته علاقات الجوار الضيقة ، تلك العلاقات التي اوجدت فكرة « المُلكية » وحددتها ضمن نطاق معين لحياة الانسان وحياة عائلته .

وتنظم هذا « المجال الحيوي » في الداخل اوجه نشاط فعلية لا تخلق في الفرد فكرة « الجهد لكسب قوته» الغامضة كما هو الحال في المناطق الصحراوية بل تخلق فيه فكرة « العمل اليومي »الواضحة .

ثم تتحد فكرة الزمان الاجتماعية بالفكرة الاولية القائمة على التوازن بين الانسان والارض .

ويضطر المناخُ الانسانَ الى استعمال النار كعنصر اساسي في حياته والى تأثيث بيته حسب عمله اليومي وحسب المناخ والنار فتصبح الطاولة

والكراسي ضرورية لحياة عائلية متينة يجتمع الافراد فيها في ساعات معينة لتناول الطعام سوية .

اما في الخارج فتنتظم هذة المنطقة العائلية مع المناطق الاخرى المجاورة التي تخضع لنفس الشروط .

فيتولد في هذه المجتمعات روح اجتماعي ثم يؤدي ذلك إلى نشأة الحياة الجماعية وهكذا يتم توحيد الافراد حسب نظام يناسب ظروف الحيـــاة الثابتة واهدافها .

ذلك هو الاطار الاصلي للحياة الاوروبية في اعماقها الذي لم تستطع نزعة الاستعمار الروماني ولا نزعة الترحال الجرماني تغييره عبر القرون . ولهذا لا نزال نرى اليوم المرأة الاوروبية تنحني في الحقل لالتقاط قبضة من العشب تحملها الى ارانبها بينما طفلها منهمك في العابه البدائية .

تلك هي صورة مجتمع يشيع فيه معنى الفائدة .ثم تأتي المسيحية وفلسفة ديكارت فيتمان تكوين هذه الصورة. فقدحملت المسيحيه لاوروبا معنى العموم والشمول وبذلك حملت اليها هذه الحيوية التي كان يفتقد اليهـــا مزاجها الثابت.

واما فلسفة ديكارت فقد نظمت اوجه النشاط الاساسية فيها تمهيداً للنهضة الصناعية التي سيؤدي اليها تطورها . كما ان المسيحية قد وضعت في هذا المجتمع الذي يمتاز بفضائله المغلقة – هذا المجتمع الذي كان يعرف « التعاون » ويجهل «الضيافة» – وضعت المسيحية فيه خميرة نزعة التعاون والامتداد الاخلاقي التي سوف تتخذ ذريعة للحروب الصليبية وللاستعمار.

وقد تفتحت المدنية الاوربية اثناء الحروب الصلبيية عـــلى الخارج

وجنت خيراً وفيراً من المدنية الاسلامية . كما أن نفس النزعات قدوفقتها فيما بعد إلى اكتشاف اميركا .

فظهر عندئذ الانفصال بين اوروبا المسيطرة وبين سائر الجنس البشري . ويفسر لنا هذا الانفصال السياسة العالمية منذ اربعة قرون كما يفسر لنا الاضطراب الذي تتخبط فيه في الوقت الحاضر.

ومهما كان الامر فان هذا المجتمع الذي يتسم بشدة بطابع الارض والذي قُضي فيه تماماً على كل امكانية لقيام علاقات بين الناس قد اكتشف في نهاية القرن الثاني عشر العالم الاسلامي .

لم يستمد الفرد في هذا العالم غذاءه في البدء من الارض التي كانت عاجزة عن ان تمده به بل استمده من الحيوان . فقد نشأ راعياً أو ارباً ولم يكن «مجاله الحيوي» محدداً بل هو يمتد امتداد المنطقة المجاورة لسكنه حيث هطلت آخر الامطار . ولم يكن مسكنه ثابتاً ولهذا لم يحتج الى الاثاث . فأية حاجة إذن للاستقرار في ارض لا توفر الغذاء باستمرار ؟

ولهذا لم يكن لهذا الانسان الدائم الترحال اوجه نشاط معينة ، فهو رغم معرفته للجهد المضني الذي يبذله الراعي او المحارب أحياناً فانه لم يعرف العمل المنظم اليومي ذلك العمل الذي تعلمنا اياه الارض خلال فصول السنه . ولهذا فقد قنع بحرارة الشمس ولم يستعمل النار الاكعنصر ثانوي في حياته . كما أن هذه الحياة المتنقلة ليست بحاجة الى علاقات الجوار المنظمة وذلك لفقدان الملكية الفردية . ولما كان غذاء الفرد يتعلق بهذه الملكية فان غريزة الاجتماع ظلت في حالة بدائية ولذلك لم يسع الى الانضمام لنظام اجتماعي .

فالقبيلة التي ينتمي اليها ليست نظاماً وُجد لاسباب إجتماعية بل لاسباب

بيولوجية ، ، اما صلات الفرد بخارج القبيلة ، اي صلاته الاجتماعية ، فقد كانت مفقودة .

وهكذا نرى اننا امام عالم غاية في الانقسام قد تجزأ إلى افراد، عالم يجهل « التعاون » كما يجهل فعالية المادة ومع ذلك كان يعرف «الضيافة» ويقدر « الكرم » ويستسلم للغرور ويحب الشعر والخيل .

وتفسر لنا حيوية هذا العالم سرعة انتشار الاسلام التي حاول المؤرخون تفسيرها عن طريق الظروف الخارجية .

ذلك هو الاطار الذي حاك حوله الاسلام مدنيته . فوُحد هذا العالم الذي تسيطر علية النزعة الفردية توحيداً جماعياً كان السبب في توجيهه التاريخي .

فقد جعل القرآن من البدوي حضرياً ترك في اسبانيا ووسط فرنسا آثار علم زراعي تام (١) .

وقد كان لاستقرار الانسان على الارض نتيجته المباشرة فنشأ العلم والفن في مجتمع منظم لايخضع فيه الفرد لمزاجه المتقلب بل للقوانين الثابتة .

وقد اتم هذا العالم في القرن الثامن عشر منذ زمن طويل دورة مدنيته فوجد الفرد نفسه في ظروف المعيشة التي نشأت في مجتمع منقسم توقف فيه كل نشاط ما عدا بعض المناطق كفاس والقيروان ودمشق . فكانت هذه البلدان الشاهد الوحيد على الماضي البعيد، وذلك لأن إنسان ما بعد الموحدين قد آثر على حياة الحضر العودة الى حياة البداوة التي عاشها اجداده .

---

(١) يرجع تاريخ المحكمة التي تفصل اليوم في اسبانيا في القضايا الخاصة بتوزيع مياه السقاية الى العهد الاسلامي وتسمى : (el tribunal de las agua)

ولو ان المهندس او الفنان الاوروبي شهد اليوم تمام دورة مدنيته لاصبح من جديد بستانياً او مزارعاً .

ولهذا كان العالم الاسلامي في حالة اجتماعية قبلية بدوية حين اكتشفه الغرب من جديد منذ اكثر من قرن من الزمن .

لا يجب ان ننسي ان اوروبا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على مصير النوع البشري لم تعترف منذ عصر بوكاشيو ـ حين كانت مدنيتها لا تزال في المهد ترضع اللبن العربي ـ بأية مدنية اسلامية . ولنستمع إلى جوستاف لوبون ينهي كتابه عن المدنية العربية بقوله : « لربما تساءل القارىء إذن عن السبب الذي ينكر من اجله العلماء ـ الذين يجب عليهم ان يتجردوا عن كل تعصب ديني ـ اليوم تأثير العرب ... والواقع ان استقلال الرأي ظاهري اكثر منه حقيقي ، وذلك لاننا لسنا احراراً قط في تفكيرنا حول بعض الموضوعات . فقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الاسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى اصبح جزءاً من تركيبنا العضوي » .

يبين لنا هذا النص تماماً بصورة غير مباشرة موقف المدنية الغربية من العالم الاسلامي في مطلع عصر الاستعمار . ويقابل هذا الموقف موقف العالم الاسلامي مما جاءت به اوروبا من أشياء وافكار . فكان يزدريها مدعياً انه المالك الوحيد للرحمة الالهية .

يمكننا بعد هذا ان نتصور بسهولة التناقضات الداخلية التي سوف يدخلها الغرب الحديث في العالم الاسلامي القديم ، عالم انسان ما بعد الموحدين .

٢

النهضة

حركة الاصلاح

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »
(١٣ ، ١١)

لم يحمل الاوروبي معه، حين استقر في مطلع القرن الاخير في العالم الاسلامي، من الاخلاق المسيحية سوى بعض نوايا نفسه النبيلة لمن يراها من الداخل من خلال فضائلها. غير ان هذه النفس المغلقة على ذاتها ظلت بعيدة عن المسيحية .

وذلك لأن النفس المسيحية في الخارج، اي في صلاتها الواقعية بالعالم الاسلامي، انما هي في الغالب نفس المستعمر الذي استمع قبل ابحاره إلى الهند أو جزر السند في ليالي السمر العائلية بالقرب من الموقد الى الاحاديث الخيالية عن بلاد الاندوادومس . فهو يبحث الآن بدوره عن البيرو حتى انحُمى البحث عن الذهب لم تكن في يوم من الايام اشد منها بعد اكتشاف المستعمرات .

يجب ان ننظر إلى الحوادث هنا نظرة العالم الاجتماعي لا نظرة من يريد اصدار حكم اخلاقي . ولهذا يبدو لنا بوضوح الدور الكبير الذي قام به الاوروبي منذ قرنين من الزمان في تاريخ العالم .

ومهما كان انفصال الاوروبي عن سائر اعضاء الجنس البشري واحتقاره لهم لانه لم يرى فيهم سوى تكتة يعتمد عليها فان الاوروبي قد انقذ العالم

الاسلامي من الفوضى التي كان يتخبط فيها هذا المجتمع لايمانه بالقوى الغيبية واحلاله لخيالاته الشخصية محل الروح . فاستحال المجتمع إلى شبح شوهه خيال اصحاب الرؤى الذين فقدوا عبقرية الارض بفقدهم معنى الواقع .

فلقد اوحت حيوية الاوروبي لانسان ما بعد الموحدين بمفهوم جديد لقيمته الاجتماعية وذلك بعد ان زعزع النظام الاجتماعي الذي كان يعيش فيه وبعد ان سلبه وسائل الحياة الهادئة . فكان دور الاوروبي اشبه بدور الديناميت الذي يتفجر في مكان استسلم للصمت والتأمل .

فاحس انسان مابعد الموحدين كما احس البوذي في الصين والبرهماني في الهند بالهزة فاستيقظ أخيراً من سباته .

فوجد نفسه في نطاق جديد لم يقم بتكوينه ثم الفى نفسه أمام ضرورتين ماستين : كان عليه رغم انحطاطه أن يضمن لنفسه اقل ما يمكن من الكرامة التي يفرضها الاسلام على معتنقيه حتى في مجتمعات إفريقية الوسطى البدائية . كما كان عليه أن يضمن لنفسه أقل ما يمكن من الحياة في نظام اجتماعي لايتغير بعد ان عجز عن تغذية المغامر الذي يعيش على الغزو والتقي الورع الذي يعيش من تقوى المجتمع أو ابن العائلة الذي يعيش من موارد عائلته . وهكذا زالت كل امكانيات العيش الوادع . فاضطر المسلم في ميدان الاخلاق والاجتماع إلى البحث عن هدنة تحافظ على الوضع الراهن تتفق وظروف الحياة الجديدة . وقد تولد عن هذا السعي الغامض الذي انضاف إلى قلق قديم تركته في الضمير الاسلامي كتب ابن تتيمية الحركاتُ التاريخية التي طبعت الاسلام بطابعها في الوقت الحاضر .

وقد صدرت هذه الحركات عن نزعتين هما نزعة الاصلاح التي تتصل بالضمير الاسلامي والنزعة الحديثة . وهذه النزعة أقل عمقاً من النزعة الأولى واكثر اتصالا بأهداف طبقة اجتماعية جديدة تربت في المدرسة الغربية كما سيكون شأن الحركة في اليجار في الهند .

تسربت النزعة الاولى إلى الضمير الاسلامي كما يتسرب مجرى الماء تحت الارض ثم ينبع في أماكن متعددة فوق سطح الارض في فترات منفصلة منذ عهد ابن تيمية الذي لم يكن «عالماً» كالشيوخ ولا متصوفاً كالغزالي بل كان مناضلا في سبيل تجديد روحي واجتماعي في العالم الاسلامي .

وقد نشأت عن هذه النزعة بمساعدة إبن تومرت في افريقية الشمالية امبراطورية الموحدين القوية التي اقامت في الشرق، بفضل ابن عبدالوهاب، أول امبراطورية وهابية ، تلك الامبراطورية التي قضى عليها محمد علي عام ١٨٢٠ م بتحريض الباب العالي والدول الغربية . وقد احتفظت هذه النزعة بقوتها العقيدية فعادت إلى الظهور مرة ثانية عام ١٩٢٥ بصورة زمنية في امبراطورية الوهابيين الحاضرة . ولقد وجدت هذه الحركة منذ مايقرب من القرن الضمير الذي سيعبر عنها امام العالم الاسلامي ألا وهو ضمير جمال الدين الافغاني الذي فر إلى الجبال المنعزلة هرباً من بوادر الانحطاط التي كان مجتمع ما بعد الموحدين يلصقها بالفرد ليجعل منه ضحية أو تبعاً.

فلقد جمع جمال الدين إلى جانب ميزته كأنسان « طبيعي » ثقافة فريدة بدأبها عهد الانسان المثقف (l'homo sapiens) في العالم الاسلامي الحديث فجذبت هذه الثقافة اليه الشباب المتعلم في اسطنبول والقاهرة وطهران . وقد خرج من هؤلاء الشباب قواد حركة الاصلاح ، كما تجرأ هذا

الرجل ،الذي يبدو أن الاستاذ جب يشك في كفاءته الفكرية، على القول منذ قرن في مجتمع ما بعد الموحدين المنحط « بوظيفة الانبياء الاجتماعية » . ولقد شاءت الظروف التاريخية أن يكون الشاهد الصادق والحكم العادل على مجتمع تم انحلاله واخذ الاستعمار يحتل ارضه، ولربما كانت ثورة السبايس (Cipayes) التي انتهت بهدر الدماء هي التي حملته على محاولة تجديد مجتمعه .

شهد جمال الدين في هذه المأساة افلاس المجتمع الاسلامي في الاخلاق والدين وقد نتج هذا الافلاس عن فشل الثورة وظهور حركة الاليجار التي اندلعت في الهند اثر هذه الحوادث الدامية فكانت في نظر جمال الدين بمثابة خيانة للاسلام ، فدعا تواً لمقاومة النظم البالية والافكار الميتة .

وقد سعى أولا للقضاء على نظم الحكم الموجودة لتحقيق تنظيم جديد للعالم الاسلامي يقوم على « الاخوة الاسلامية » التي تصدعت في صفين وقضت عليها الحكومات المستعمرة قضاء مبرماً .

كما قاوم من ناحية ثانية « النزعة الطبيعية » التي كان يعني بها النزعة المادية التي تكمن وراء تعاليم علي خان في اليجار والتي تعود في نظره لتأثير الغرب الخفي . ولربما بدا موقفه بهذا الصدد موقف رجل رجعي لا سيما وان الحركة الجامعية التي قاومها اصبحت من بعد عاملا قوياً في نهضة الاسلام في الهند . بيد اننا كي نستطيع اصدار مثل هذا الحكم على رجل كان رائد حركة الاصلاح الحديثة يجب أن نتأكد من أن مقاومته لم تغير من اتجاه تعاليم اليجار . لأننا هنا بأزاء وضع يشبه وضع الجامعة المصرية بعد قرن من الزمن حين قام احد اعضائها بأصدار

رسالة مهمة . (١)

فهل نستطيع القول بأن موقف أعداء هذه الرسالة ، ولا سيما رشيد رضا ، كان موقفاً سلبياً فقط وأنـه لم يؤثر في اصلاح اتجاه الثقافة المصرية فيما بعد ؟ هذا إذا علمنا أن اتجاه كتب طه حسين فيما بعد يتعارض ومثل هذا القول .

ومهما كان الأمر فان دور جمال الدين لم يكن دور مفكر يتعمق المشاكل في البحث عن حلول لها وذلك لأن مزاجه العنيف لم يكن ليسمح لـه بذلك . فكان قبل كل شيء مناضلا ولم تكن ثقافته الواسعة سوى وسيلة للعمل الثوري إذ كان العالم الاسلامي في أيامه وفي الظروف التي وجد فيها لا يزال غارقاً في نومه . فكان لعمل جمال الدين تأثير نفسي وفكري أكثر منه سياسي . فقد انكشفت بفضله المأساة الاسلامية في الضمير الاسلامي نفسه .

ولا يبدو أن كشف هذه المأساة أمام انظار الضمير الاسلامي الذي كانت تكمن فيه كان جزءاً من برنامج منظم وضعه جمال الدين . وذلك لأن كتاباته ، وهي نادرة جداً ، ضد اصحاب النزعـة الطبيعية أو ضد رينان لا تسمح لنا بمثل هذا القول في هذا الصدد . بيد أنه وإن لم يكن زعيم حركة الاصلاح الحديثة وواضع منهجها فقد كان رائد هذه الحركـة لأنه وعى هذ القلق وحمله معه في ترحاله طيلة حياته ، هذا القلق الذي ندين له بمحاولات النهضة المتـواضعة في الوقت الحاضر ، ولانـه سعى لأعادة تنظيم العالم الاسلامي تنظيماً سياسياً .

غير أن هذ االتنظيم قد اتجه الى الشعب والى النظم ولم يتجه لاصلاح إنسان ما بعد الموحدين .

---

(١) رسالة طه حسين « في الشعر الجاهلي » (١٩٢٦) .

لقد خبر جمال الدين بصدق فساد مجتمعه ولكنه بدلامن اهتمامه بدراسة العوامل الداخلية التي أدت إلى هذا الفساد حسب ان القضاء عليه انما يكون بالقضاء على الوضع السياسي الذي يحميه .

ولربما كانت هذه النظرة صحيحة لو انه استطاع أن يقوم بالثورة الضرورية من أجل ذلك ، لان كل ثورة تخلق قيماً اجتماعية جديدة تستطيع اصلاح الانسان في النهاية ، غير أن جمال الدين لم يوفق في اختيار الدافع لهذه الثورة وذلك لان هذا الدافع لا يكون فعالاما لم يكن «فعلا» يسعى لتآخي المسلمين كما فعلوا أيام الانصار والمهاجرين حين كان هذا التآخي أول عمل دستوري تأسس بفضله المجتمع الاسلامي الاول ، وليس عاطفة تقوم على « الاخوة الاسلامية » .

وهكذا فان جمال الدين بالرغم من أنه كان رائد حركة الاصلاح وبطل الملحمة الحديثة الاسطوري (١) فانه لم يكن هو نفسه « مصلحاً » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

كان على الشيخ محمد عبده أن يثير مشكلة الاصلاح وكان مصرياً أزهرياً . ولقد كانت مصر منذ أقدم العصور شديدة التعلق بالارض ولهذا كونت مجتمعاً يعيش فيه الفرد داخل الجماعة . وهذا مما جعله شديد الاحساس بالحقائق الاجتماعية .

بعد أن أدرك محمد عبده المأساة الاسلامية جعل من هذه المأساة مشكلة

---

(١) يقول عنه المفكر الجزائري علي الهمامي الذي يقيم الان في مصر في كتاب حديث له عن حياته « سوف يخلد اسمه في جميع البلاد الاسلامية كما خلد اسم هوميروس في مدن اليونان القديمة »

مشكلة اجتماعية بينما نظر استاذه جمال الدين ، بفكره العصبي التجريبي ، الى هذه المشكلة من الناحية السياسية .

وترجع نشأة حركة الاصلاح واتجاهها الى بذورها الاصلية عند الشيخ محمد عبده المصري الذي كان زعيم هـذه المدرسة الحقيقي . ويبدو أن غريزة الارض وروح الازهر قد أوحى كل منهما اليه بالحـل المناسب وذلك حسب ما يسميه جب « بنزعة الذرة » عند المسلمين .

وكان محمد عبده يعلم ان الاصلاح لا يتم الا بأصلاح الفرد اولاً ، وكان يجد الدليل على هذه النظرية في القرآن إذ يقول « إن الله لا يغـير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

تحتوي هذه الآية ، التي أصبحت شعار حركة الإصلاح ولا سيما في إفريقية ، على عرض قوي للمشكلة الاجتماعية التي تكمن أصولها الاساسية في نفس الفرد فما السبيل إلى اصلاح هذه النفس ؟

يظهر هنا تفكير محمد عبده المؤمن ، كما سيقول فيما بعد السيد محمد اقبال الهندي ، فهو يعتقد ان اعادة تنظيم علم الكلام الاسلامي ضروري. غير ان علم الكلام هذا سيكون مصيبة على حركة الاصلاح فينحرف بها رويداً ليقلل من قيمة بعض مبادئها الرئيسية كالقول بالنزعة السلفية والعودة الى روح الاسلام الاول .

وذلك لان علم الكلام لايتعرض لمشكلة النفس الا في ميدان العقيدة، ولم يتخل المسلم ، حتى مسلم ما بعد الموحدين ، عن عقيدته بل ظل مؤمناً أو على الاصح تقياً. وقد أصبحت عقيدته غير مجدية لانها فقدت اشعاعها الاجتماعي وأمست ذاتية، فهي عقيدة فرد فقد انفصل عن بيئته الاجتماعية. ليست المشكلة اذن هي تلقينه عقيدة يؤمن بها بل المشكلة هي في اعادة

الفعالية إلى هذه العقيدة . وبكلمة مختصرة فقد كانت المشكلةهي «بعث» الشعور بالالوهية في ضميره ونفسه أكثر منها في التدليل علىهذهالالوهية. ذلك لان اصلاح النفس انما يكون في تخطيها لقدرتها العادية . ولاتتعلق هذه المهمة بميدان علم الكلام بل هي أقرب إلى التصوف وإلى علم ليس له اي اسم حتى الان ويمكن تسميته « بتجديد الميثاق » .

ولا يمكن للتصوف أن يكون الاساس الضروري للعمل الاصلاحي وذلك لان التصوف لا يتعلق إلا ببعض النفوس المختارة بينما يجب علينـــا في حركة الاصلاح أن نمد جمهرة الشعب بدفعة داخليـــة ، تلك الجمهرة المتلهفة على الدافع للتغلب على جمودها (١) .

كان بأمكان مدرسة الاصلاح أن ترى مثل هذا الرأي لو أنها قامت بتوحيد أفكارها ووصل نظرة الشيخ محمدعبده العقيدية بنظرة جمال الدين السياسية والاجتماعية ، وهذا من شأنه أن يفضي الى انتهاج وسيلة غـــير تلك الوسيلة البسيطة التي تقوم على اعادة تنظيم علم الكلام .

وذلك لان كلا من موسى والمسيح ومحمد لم يكونوا علـــماء كلام يصوغون النظريات المجردة بل كانوا مصدراً لهذه الطاقة الاخلاقية التي كانوا يمدون بها النفوس للساذجة .

يعود علم الكلام الى المناقشة وتبادل الآراء من جديد بيدانه من جهة ثانية يشوه الحركة الاسلامية بتغيير مبدأ العودة الى السلف الاصلاحي

---

(١) هاك ما يقوله شستر تون عن التصوف الحالي عند حديثه عن تخبط اوروبـا الحديثة «نشهداليوم عودة الىالتصوف عن غير طريقالمسيحية . وهكذا يعودالتصوف لوحده حاملا معه سبعة شياطين اقوى منه ». يمكن تطبيق هذا الحكم على تصوف المرابطين في مجتمع ما بعد الموحدين .

في اذهان المصلحين أنفسهم ، وهذا من شأنه أن يحل محل مشكلة النهضة النفسية مشكلة كلامية ، لان علم الكلام لا يتعرض لمشكلة وظيفة الدين الاجتماعية ، ولا يتعلم المؤمن شيئاً في مدرسة تعلم فقط وجود الله ولا تعلم العودة الى السلف .

لربما وجب أن نضيف الى الاسباب التي ذكرناها لتفسير انحراف حركة الاصلاح ما يسميه جب « بالاجبار » والفرض . ولقد وجد هذا الاجبار في الحضارة الاوروبية على عهد القديس توما الاكويني في صورة كبت المؤثرات الاسلامية . ونرى اليوم نفس هذه الظاهرة في الحضارة الاسلامية التقليدية على صورة مقاومة الافكار الغربية .

وهكذا تبدو لنا كتابات الشيخ محمد عبده الكلامية عبارة عن مديح للاسلام دفع اليه الضغط الاوروبي .

ولو اننا اختصرنا هذا النقد لتراءت لنا معه الثغرات في الحركة الاصلاحية ، وربما فقدت هذه الحركة في نظرنا قيمتها الاجتماعية اذا لم تفقد قيمتها التاريخية ومع ذلك فان العالم الاسلامي في الوقت الحاضر ـ في كل ما حققه وما يسعى لتحقيقه ـ من صنع الشيخ محمد عبده ومدرسته .

أما القسم الباقي من العالم الاسلامي فهو من صنع النزعة الحديثة التي نتحدث عنها فيما بعد .

فاذا كان الازهري الكبير لم يتبين جيداً المشكلة في الضمير الاسلامي فانه قد تبين هذه المشكلة في الميدان الفكرى الا وهو ميدان العقل .

كان لحركة الاصلاح في هذا الميدان صدى عميق يشهد عليه البعث الفكري الذي تلاها في مصر وفي كل مكان من العالم الاسلامي ، وذلك لان

علم الكلام كان أول محاولة للفكر الاسلامي للتخلص من جموده القديم .

ولهذا يجب أن ندرك اهمية ظهور «رسالة التوحيد» في ميدان لم يظهر فيه اي كتاب منذ أيام ابن خلدون .

فلقد أنتج ذهن مهم لاول مرة منذ عدة قرون ، كتاباً يدل على التفكير ، فكان لا بد من مناقشته للمرة الاولى وتعكير صفو هذا الصمت المخيم على جامعات العالم الاسلامي القديمة . وقد أحست إحدى هذه الجامعات ، وهي جامعة الازهر ، بهذا التغيير وتردد في جوانبها صدى المناقشات التي أثارها كل من جمال الدين ومحمد عبده . ولا يظهر أثر ذلك في برامج الازهر ومناهجه ـ التي لا تزال تنتظر الاصلاح بالرغم من ظهور عدد من المحاولات السطحية ـ بل في روحه .

فلقد أخذ الازهر مؤخراً ـ وهو مركز العالم الاسلامي الفكري ـ بقانون الحركة والتقدم وأدرك انه ليس هناك من كمال أزلي بل أن هناك أوضاعاً تسير نحو الكمال شيئاً فشيئاً .

وهكذا نشط الفكر الاسلامي في المجال الواسع الذي فتحته أمامه حركة الاصلاح (١) .

غير أن هذا المجال قد أهمل منذ سنين ولهذا غزته الطفيليات في الميدان الفكري أكثر من غزوها في الميدان الروحي فوجب تشذيبه منها بجد ونشاط ، وقد انضاف الى ثغرات انسان ما بعد الموحدين ثغرات النظم السياسية .

---

(١) لم يرد المؤلف ضرورة للحديث عن تلاميذ جمال الدين والشيخ عبده الذين قنعوا بنشر الحركة ، ولا بد هنا من ذكر ابن باديس كما يجب الرجوع الى دراسة علي الهمامي التي ظهرت في مجلة الجمهورية الجزائرية ١٩٦٩ .

ذلك لان لكل نظام حياته وتاريخه وتقاليده وجموده الخاص الـذي يتحدى في بعض الاحيان ارادة الانسان في الاصلاح .

ولهذا انضاف إلى النزعة الى الذرة عند المسلمين والى النزعة العقيدية والميل الى المديح تلك النزعات الاخرى التي لم تستطع حركة الاصلاح التخلص منها مـن تلقاء نفسها ، انضاف الى كل هـذا عيوب النظم الاجتماعية كالمجادلة والنزعة الحرفية والسفسطة والنزعة الشعريـة وكلها خاصة بحضارة ما بعد الموحدين . فما السبيل اذن الى الحركة تحت عبء القرون والتقاليد والعادات التي تراكمت عبر السنين ؟

كان لا بد من ظهور مفكر ثوري كجمال الدين ميالٍ إلى تهديم كل شيء لاعادة البناء من جديد أو ظهور مفكر مذهبي يقوم باجراء عمليات البتر الضرورية بصورة منهجية لتطهير النظم من عيوبها القديمة .

كان لا بد قبل كل شي من تنظيم لائحـة بعمليات البـتر الضرورية وتشذيب التقاليد .

وكلمة التقاليد هذه كلمة سحرية في اللغة العربية يمكن أن تعني جميـع الاوهام وجميع الخرافات تحت طلاء الاسلام (١) .

وذلك لان نقد هذه التقاليد نقداً منهجيـاً حسب اصول الاسلام يخلص الحضارة الاسلامية من كثير منها . وهكذا استطاع عبد الحميد بن باديس تخليص الجزائر من تقليد خاطيء الا وهو نزعـة المرابطين التصوفية . لكن يصعب أن يقوم بعملية التطهير هـذه فرد واحد .

---

(١) لم يخطر على بالنا عند كتابة هذه الاسطر انه سيأتي يوم يجرأ فيه رجل مثل الجلاوي على الدفاع عن «التقاليد» باسم الاسلام . المؤلف ١٩٥٤ .

ولهذا لم يستطع الشيخ محمد عبده القيام بذلك لانه كان وحيداً في عصره . فهو كمفكر مثال للعمل الفكري في عالم لم يعتد التفكير . وهو كمدير للازهر قد بعث في هذه المؤسسه حركة نشيطة من اجلها ان تصلها بالافكار الجديدة . كما انه زيادة على عمليات البتر التي اجراها في الحضارة الاسلامية قد اطلع العالم الاسلامي على الحضارة الغربية عن طريق اصلاح الازهر في كتاباته التي تأثرت بهذه الحضارة . وقد نتج عن جميع هذه المحاولات نشاط النهضة الفكري.

غير انه بينما اتجه نشاط « الماجي » باليابان نحو الصناعة الفنية إذا بنشاط النهضة الاسلامية لا يتعدى نطاقاً معيناً بتأثير نوازع انسان ما بعد الموحدين الطبيعية وتأثير اصول المؤسسات الثقافية التي استنفذت منذ زمن طويل غايتها الاجتماعية .

ولقد حافظ المصلحون بعد محمد عبده كل المحافظة على الاوضاع السائدة . فاستمرت المجادلة مدة طويلة في المناقشات الادبية .

ولم يكن الادباء يبحثون عن الحقائق بل عن الحجج . ولم يكونوا يستمعون لمعارضيهم بل كانوا يمطرونهم بسيل من الالفاظ .

ولهذا كان ضرر المجادلة في انها تصدر عن حب أعمى للكلمات .

نصل هنا الى ثغرة أخرى من ثغرات فكر ما بعد الموحدين ألا وهي النزعة الحرفية . فلقد أبدعت العبقرية العربية أجمل اللغات ، بيد أنه قد حدث لهذه العبقرية ما حدث للنحات الذي وقع في أسر التمثال الذي أبدعه ازميله . ولسوء الحظ فان خطر التعلق بالالفاظ اشد من خطر التعلق بالبرنز أو المرمر أو الحجر . وذلك لانه يؤدي الى فقد معنى

الاتزان الضروري لكل عمل بنائي ايجابي . وان أقل اعلان في جريدة عربية لشاهد على ذلك . فلقد أعلنت مؤخراً جريدة تونسية عن عودة زعيم سياسي من الخارج باضافة خمسة او ستة نعوت الى اسم هذا الزعيم مثل نعوت «الكريم» و «العظيم» و «الجليل» و «الزعيم» الخ ..

لا شك اننا هنا أمام باقة من المديح . غير ان للكلمات العربية تأثيراً لا يقاوم على ذهن انسان ما بعد الموحدين .

فنتج عن هـذا أن تأليه اللغة العربية قد منعها من كل تطور كما ان تقديس العرب لها قد جعل تراكيبها غير مفهومة لان هذه التراكيب لا يمكن أن تزيد عـلى الخمسة عشر صيغة حتى لاصبح من الكفر تكوين صيغة جديدة بواسطة سوابق مناسبه لا تتعارض وروح هذه اللغة .

كما أن التعليم الحر الاسلامي جامـد لا يتغير وكذلك شان المناهج وطرق التربية . وذلك لان المباديء لا تزال كما كانت عليه منذ العصر الوسيط المسيحي . وطالما ظلت هذه المباديء الاطارات العقلية للعمل طالما بقيت أوجه النشاط تسير على غرار عالم غابر . ولقد خيل الى البعض انه يمكن تغيير الافكار ببعض الاصلاحات السطحية . فادخلت الطاولة والكرسي الى المدرسة الجزائرية . كان ذلك ولا شك خطوة اولى بيد أنه من السذاجة الاقتناع بذلك .

ولهذا لا يجب الدهشة من ان الفكر العربي الحديث لا يزال يجهل معنى الفعالية . وذلك لان سيطرة الكلمات والصور المطلقة يطبع كل ترجمة للنهضة بطابع سطحي . رأينا ذلك في مؤتمر الحضارة الاسلامية في تونس حيث وقف احد المشايخ يلقي محاضرة عن الاحاديث المتعلقة بالرأفة

فيمضي اكثر من ساعة في سرد سلسلة هذه الاحاديث (١)

ولا حاجة بنا الى القول بان المستمعين لم ينتبهوا الى فحوى الحديث بل راحوا يتثاءبون ... من الاعجاب !

نصل هنا الى ناحية مهمة في نفسية انسان ما بعد الموحدين وذلك لان الخطر يزداد كلما ازداد الاتفاق بين الخطيب ومستمعيه على الجمود حتى لان الحقائق الحية التي طبعت المدنية الاسلامية بطابعها لم تعد اليوم سوى حقائق ميتة تخنقها الجمل البلاغية والرواية الواسعة .

ويبدو أن المثل الاعلى لا يزال كما كان في عصر الانحطاط ألا وهو «بئر العلم» الشهيرة التي يغوص فيها العلم ويفقد دوره الاجتماعي .

وان اي درس في التفسير ليتيح لنا الفرصة للاطلاع على نتائج ثقافتنا الحاضرة . تلك الثقافة التي يستعبدها اللفظ فلا تعبر عن اي اهتمام (بالعمل) بل انما هي تنحصر في لذة الكلام البسيطة .

وهناك سبب آخر لعدم الفعالية التي طبعت بها نزعة المديح العمل الفكري . حتى اذا ما أتجه المديح نحو الماضي اتخذت الثقافة طابع علم الآثار واتجه الجهد الفكري الى الوراء بدلا من اندفاعه الى الامام . ومن شأن هذه النزعة التقهقرية المغالية ان تجعل التعليم يتجه الى الماضي اتجاها لا يتفق وضرورات الحاضر والمستقبل . فنشأ عن ذلك في عالم الفكر ضرب من التعلق بالماضي .

---

(١) سلسلة الحديث او «السند» عبارة عن سلسلة الاسماء والمراجع التي يعتمد عليها في نسبة الحديث الى النبي .

يجب ان نضيف الى كل ما قلناه عن معايب الحضارة بعد عصر الموحدين عيبين : نزعة الى «الكم» طفيلية نراها حتى في العنصر المتصل بالحضارة الغربية ونزعة الى « الشعر » يتفرد بها شباب الزيتونة الذين لم يتثقفوا إلا بالثقافة القديمة .

وتقوم النزعة الى «الكم» على تقدير الفعالية والقيمة بواسطة « الكمية » او «العدد» . وهكذا تكون قيمة كتاب ما في عدد صفحاته . أما النزعة الشعرية فهي الصناعة الفنية التي تمتاز بها النزعة الحرفية والميل الى المديح وهي وسيلة لستر النواقص والعيوب وتزيين الاخطاء وتغطية العجز عن طريق البلاغة .

يبدو أن جميع هذه الثغرات التي ذكرناها لم تكن لتساعد على ازدهار مدرسة الاصلاح التي لم تعرف كيف تقضي عليها او لم تتمكن من ذلك تماماً . وهكذا لا تزال مشكلة بقايا عصر ما بعد الموحدين في النهضة الاسلامية قائمة .

وتقف الحركة الآن على مفترق جديد بعد موت ممثليها الكبار امثال رشيد رضا في المشرق وبادس في افريقية الشمالية .

ولقد تطورت في مصر الفكرة الاساسية التي تدعو الى خلق الاساس الاخلاقي للحياة الاسلامية الى حركة جديدة هي حركة الاخوان المسلمين الذين سوف نتحدث عنهم فيما بعد .

أما في افريقية الشمالية فقد حل محلها التعليم الحر الذي يتمم التعليم الرسمي . ولا تزال الفكرة الاصلاحية موجودة في هذا السبيل . فهناك

بعض المعلمين الشباب الذين يملؤهم الانـــدفاع السلفي . اما الآخرون فليسوا سوى موظفين .

ويمتاز هذا التعليم في انه يحارب عيب عصر ما بعد الموحدين المميت ألا وهو « الامية » . غير أنه لما كان هذا الاصلاح يفتقد الى نظرية في الحضارة فانه يعمل على نشر التعليم ويتصور انه يستطيع تغيير ظروف الحياة بتعليم تذوق كل ما هو اسلامي ولا سيما الآداب العربية .

نستخلص من كل ذلك ان الحركة الاصلاحية لم تعرف السبيل الى تغيير النفس الاسلامية كما لم تعرف تطبيق فكرة «وظيفة الدين الاجتماعية» ولكنها مع ذلك نجحت في القضاء على التوازن الثابت في مجتمع ما بعد الموحدين وذلك باثارة المأساة الاسلامية القديمة في ضمير الامة الاسلامية من الناحية الفكرية .

ولهذا يجب علينا كي تتخطى النهضة حالتها البدائيـــة ان نعرض لمشكلة الحضارة عامة .

أشرنا فيما سبق الى ان « المدنية الاسلامية » لم تكن سوى توفيق بين عقائد الاسلام وواقع الامر الذي نتج عن صفين . ولقد لقيت المدارس التشريعية عناء كبيراً لتحقيق هذا التوفيق والوقوف في وجه سلطان ملكي مستبد . وهكذا فليست المدنية الاسلامية مستقاة من العقيدة الاسلامية بل ان هذه العقيدة قد انسجمت ، على العكس ، بقدر الامكان مع نظام زمني اجبرت عليه .

ويجب أن يقوم كل بناء جديد للحضارة الاسلامية عـــلى تفضيل « العقيدة الصرفة » على واقع الامر الذي نتج عن صفين . ولهذا يقوم

هذا البناء الجديد على العودة الى الاسلام وتطهير القرآن من الحواشي الكلامية والتشريعية والفلسفية .

غير أن الحركة الحديثة تريد أن تسير بالعالم الاسلامي في وجهة أخرى . وذلك بالتخلي عن التقاليد التي لا تحتوي في اغلب الاحيان إلا على اسطورة ما بعد الموحدين . وقد حدث ذلك في تركية على يد الحركة الكماليه .

الحركة الحديثة

« او ليس من الغريب ان اتراجع امام فكرة تحسين الانسان اذا ما اردت تحسين البلاد »

(بلزاك)

رأينا ان اوروبا عند اكتشافها للعالم الاسلامي لم تطلعه على جلية امرها . كما انها لم تحمل اليه كل مدنيتها ماعدا ما يتعلق برفاهية المستعمر المباشرة .

ولقد حملت الى المواطن « المحلي »(١) المدرسة المحلية فكان ان نشأت الحركة الحديثة في العالم الاسلامي عن هذه المدرسة . ويقابل « المعهد » الحديث « المدرسة » (٢) في برنامج الاصلاح.

واذا كانت المدرسة تعمل على نشر فكر اسلامي مجدد فان المعهد يدخل عناصر حضارية جديدة في العالم الاسلامي .

وتقوم الاولى على الانفصال عن الماضي الذي تلا عصر الموحدين بينما يدعو الثاني الى الاتصال بالفكر الغربي .

---

(١) تدل كلمة المواطن المحلي هنا على الاحتقار حسب استعمال المستعمرين لهذه الكلمة .

(٢) المدرسة هي مدرسة التعليم الاسلامي فقط .

وقد قال اقبال بهذا الصدد: «ان أروع ظاهرة في التاريخ الحديث هي سرعة اتجاه العالم الاسلامي الروحي نحو الغرب». فهل حدث هذا حقاً؟

كان لا بد، لكي يحدث هذا، أن تحمل أوروبا روحها ومدنيتها إلى العالم الاسلامي أو يسعى هذا العالم لاكتشافها في موطنها. غير انه يبدو أنه ليس هناك كثير من المسلمين الذين ذهبوا لاكتشاف الغرب(١). ولهذا ليست الحركة الحديثة سوى محاولة مجتمع فقد توازنه التقليدي. وهي تتكون من مواد بسيطة لقنتها المدرسة الوطنية.

يضاف الى ذلك مواد اخرى يتعلمها شباب المدارس حسب سنوح الفرصة، ذلك الشباب الذي نشأ في البيئات البورجوازية فذهب الى اوروبا ليقيم فيها اقامة قصيرة دون أن يكون هدفه التعرف الى المدنية الاوروبية.

وكذلك لم يأت الاوروبي كداع للحضارة بل جاء كمستعمر. كما أن الشاب المسلم البورجوازي لم يذهب الى اوروبا الا للحصول على لقب جامعي وارضاء لحب الاستطلاع السطحي فيه. فاذا ما أنهى طالب الزيتونة دراسته الاسلامية وتقدم بطلب للحصول على منحة لاتمام دراسته في فرنسا أجابته الادارة الثقافية التي قدم اليها الطلب «بأن دراسة اللغة الفرنسية لا توجب الذهاب الى فرنسا».

تدلنا هذه الملاحظة على نظرة البيئة الاسلامية الى مهمة الطالب الذي يذهب الى الغرب.

---

(١) اشار الى ذلك الدكتور ج. ف. بلسارا الهندي في مقال ظهر في تشرين الثاني ١٩٤٩ في مجلة «صدى» Echo تحت عنوان: «ماذا نتعلم عن الغرب» حيث يقول «يذهب مئات الخبراء الغربيين الى الشرق بينما ليس هناك سوى عدد قليل من سكان البلاد الشرقية الذين يأتون لزيارة الغرب».

انه يذهب لدراسة لغة او تعلم مهنة وليس لاكتشاف حضارة وذلك لأن الشيء المهم هي الاستفادة المباشرة .

وليست هذه النظرة نتيجة لاهمال المسلم للغرب فقط. لان المدرسة الوطنية لا تعلم مواد الحضارة الاوروبية بل تلقن مبادىء بسيطة تعد « المواطن المحلي » لاستغلال الاقتصاد الاوروبي له . فليست مهمة المدرسة اكتشاف الذكاء وتشجيعه بل مهمتها تكوين « اتباع » لهم الكفاية من المقدرة المحدودة .

ومع ذلك يظل الكائن الواعي ـ سواء كان رجلا او تلميذاً أو موظفاً بسيطاً ـ بالرغم من اعتباره «شيئاً» من الاشياء يظل « ذاتاً » .

ولهذا يحكم المسلم « كذات » على النظام الاوروبي الذي يشهده حوله أو يحس به من خلال قراءاته الناقصة .

فآراؤه عن المدنية الاوروبية مستمدة من هذا الحكم البدائي ومن اتصاله السطحي الاداري او التجاري بهذه المدنية .

ومن ناحية ثانية فان الطفل المسلم الذي يذهب إلى المدرسه الوطنية هو أخ للطفل الذي يذهب الى المعهد الحديث . ولهذا فان نفس العادات العقلية ونفس الوراثة الاجتماعية التي طبعت حركة الاصلاح ستطبع أيضاً الحركة الحديثة وقد اختلطت بعناصر جديدة مأخوذة عن الكتب أو عن تجارب الحياة الاوروبية كما تتراءى من الخارج .

ولقد عجز الفكر الاسلامي منذ عصور عديدة عن تخطي ظواهر الاشياء . فهو لم يكن يفهم القرآن بل كان يحفظه .

ولهذا فانه بعد ان حكم بالجملة على فائدة المنتوجات الاوروبية لم يعمد الى نقدها . وذلك لأن القيم تناقش بينما الأشياء تُستعمل؛ فلم يسع المسلم لمعرفة طريقة صنع هذه الاشياء بل قنع بكيفية الحصول عليها .

وهكذا ظهرت المرحلة الأولى في تجديد العالم الاسلامي الذي اخذ بالاشكال دون ان يعلم فحواها . فأدى ذلك الى تطور لم يتم وسائله بل زاد من حاجياته .

انتشر حب المخترعات الحديثة في جميع الطبقات الاجتماعية . فكنت ترى حوالي عام ١٩٢٥ في سني الرخاء السيارات تحت الخيم الى جانب الدجاج . كما ظهرت مغسلة السيراميك في بيوت البورجوازيين حيث كانت تزين غرف النوم الحديثة .

ويدل هذا الجهل على انه نتيجة لزي الفنادق أي النظر الى الاوروبي من الخارج . وقد شاركت المرأة نفسها في هذة الحمى فبدلا من أن تتعلم فن استعمال « الخرقة » قنعت بشرائها حسب امكانياتها من مصانع الخياطة او من المخازن التي يديرها اوروبيون ماهرون .

يخفي هذا التطور الظاهري تغييراً بسيطاً في مضمون عصر ما بعد الموحدين كما يخفي الانتقال من الشكل القديم الى الشكل الحديث . وقد ازداد ذلك في المجتمع الاسلامي بازدياد الفئة المختارة التي تخرجت من المدرسة الغربية .

وقد تخطت هذه الفئة طور المدرسة الوطنية فأمضى عدد من الشباب المتعلمين مدة من الزمن في الجامعات الغربية . وبهذا تقترب الحركة الحديثة في هذه المرحلة الجديدة من الكمال فيصبح مضمونها الاخلاقي والاجتماعي واضحاً لمن يدرسه .

يعيش التلميذ المسلم في بيئة تمتاز بنفسية عصر ما بعد الموحدين ، فينتقل فيها من الاشياء المقدسة الى الاشياء الزمنية دون أن يتوقف امام الاشياء الجليلة الرائعة . ولهذا ينتقل من العلم الاسلامي الى التربية الحديثة

فلايرى من المدنية سوى الناحية المجردة او الناحية التافهة حسب استعداده الخاص للاهتمام بالامور الجدية. فينتسب عادة لكلية في احدى العواصم الاوروبية.

وبهذا تتشابه الاحياء اللاتينية في كل مكان يرى فيه الحضارة من خلال الكتب اولا يرى منها سوي الناحِية السطحية التى تظهر له في لهوه وعبثه، فلا يشهدالطالب في كلتا الحالتينسوى نهايةالمدنيةوليس تطورها.

فهو لا يرى المرأة الاوروبية تلتقط قبضة العشب بل يرى المرأة التي تطلي اظافرها وشعرها بالصباغ وتدخن على شرفات المقاهي. لا يرى العامل والفنان منهمكين في عملهما ليصوغا المادة حسب فكرهما. ولما كان منذ البدء يسعى وراء الفائدة فهو لا ينتبه للطاقة الخفية الخلاقة للقيم الاخلاقية والاجتماعية التي ترتفع بالانسان المتمدن على الانسان البدائي. ومع ذلك فإن الحضارة تبدأ حين يتخطى الجهد الفكري ارضاء الحاجة الفردية.

ولن تسنح له الفرصة لادراك الناحية الكريمة في المدنية، تلك الناحية التي تغذي نشاط الانسان المتمدن وتمده بالدفعة الخلاقة في عبقريته. وذلك لان الافكار النبيلة انما تصدر عن القلب. ولما كان ينتمي لعالم باع تحفه ومخطوطاته الى السواح الاميركان فلن يستطيع ادراك هذا التقديس «للشيء القديم» في الحياة الاوروبية.

فهو لن يرى الطفل يتعلم معنى الحياة واحترامها في مداعبته لقطة او رعايته لزهرة، كما انه لن يرى الحارث يقف عند انتهاء حرثه ليتأمل عمله وقد اتحد بالارض ذلك الاتحاد الذي هو اساس كل مدنية.

كما انه لن يستخلص العبرة من بعض اعمال الشذوذ كقيام برنار

باريس بحرق آخر قطعة من أثاث بيته وحرق أرض البيت الخشبية للحصول على العاج .

ذاك لأن ماديته اللاواعية واعجابه الشديد بما هو مفيد لن يسمحا له برؤية الناحية المخيفة في هذه المدنية بعد أن قيدت الناس بقيود الآلة التي تقودهم وتستنفذ قواهم فتجعل منهم « آلات من لحم ودم » . لن يرى المرأة بعيدة عن بيتها لتكسب بكد مضغة من الخبز في جو يقضي على انوثتها كما يقضي على رجولة الرجل. لن يرى هذه الناحية القبيحة التي يبدو معها مجتمع ما بعد الموحدين المنحط افضل من مدنية فقدت معنى الانسان؛

وعلى كل فان الطالب المسلم لم يعان التجربة الاوروبية وانما اكتفى بالقراءة عن هذه التجربة ، اي انه قنع بالعلم بدلا من الفهم . ولهذا يظل جاهلا بتاريخ مدنية اوروبا ، لا يعرف تطورها كما لا يعرف انحلالها الآن بتأثير ما فيها من تعارض داخلي وعدم موافقتها لقوانين النظام الانساني ، ولأن حضارتها ليست حضارة مدنية بل ان كلا من الاستعمار والتعصب العنصري قد جعل منها « حضارة امبراطورية » . حتى اذا ما دفعه حب الاستطلاع الى البحث عن الحقيقة لم يتصل الا بأوروبا في القرن العشرين بعد ان فقدت تقاليدها القديمة وقد علاها طلاء براق: اوروبا الحديثة في نزعتها المادية عند كل من الطبقة البورجوازية والطبقة الكادحة.

كما ان المتعلم الذي لم يتعلم كفاية في المدرسة الاوروبية معنى الفعالية الحقة التي يمتاز بها المسيحي اليوم على المسلم سوف يأخذ عن مادية اوروبا نزعتها البورجوازية أي ميولها المادية كما يأخذ عنها نزعتها البروليتارية أي نظامها الجدلي . ولما كان لم يدرك العلاقات القائمة بين

« المنتوجات » الاوروبية وبين بيئتها الطبيعية فسوف يهمل علاقات هذه المنتوجات بالحياة الاسلامية .

وهكذا نرى هذا المجتمع يتخبط في كثير من الاشياء التي أخذها عن أوروبا والتي لا حاجة له بها .

يدلنا هذا الاستعداد لجمع الاشياء المستعارة على طابع الحركة الحديثة البدائي . اذ ليست المدنية عملية جمع بل هي بناء محكم. ونحن إذا ما اهتممنا بعناصر المدنية ومنتوجاتها لم نصل الى معرفة تركيب المجتمع الغربي ولم ندرك الرمز الايجابي في فضائله الدائمة التي تتجسد في الصانع والفنان والعالم والفلاح البسيط بل أدركناه في صورته الوقتية التي هي الطيار والمصرف، كما اننا لا ندرك بوضوح تركيب العالم الاسلامي . وذلك لاننا نكتفي هنا ـ كما اكتفينا هناك ـ برؤية ما تسهل علينا رؤيته .

ليس من الغريب اذن ، في مثل هذه الظروف ، ان تفقد الكلمات نفسها معناها الذي كان يجعل لها قيمة اجتماعية. ولا شك ان الكلام مقدس ولكن بقدر ما يدل على فعل وليس على مجرد مجموعة من الكلمات كما هو الحال في الخطب الانتخابية .

تملك النزعة الحرفية عدداً من التعابير الجديدة المغرية التي تقع موقعاً حسناً من نفس مجتمع يسعى الى النهوض . ولكن الكلام يفشل هنا في مهمته فهو بدلا من أن يزيد من هذا النشاط ويضاعفه ليستطيع القيام بأعباء الحاضر فانه ينحط به ويقلل منه ليصبح عبارة عن حركات لا تكاد تكفي للفوز بمقعد أو بمركز مشرف .

وذلك لان الرجل الذي تهمة قيادة الحياة العامة لايتصور الاشياء لكي يقوم بتحقيقها بل ليقولها ويتحدث عنها بفصاحة . فيصبح الكلام عبارة

عن عمل لفظي صرف لايصدر عن أية طاقة اجتماعية أو «توتر(١)» أخلاقي.

ومع ذلك فان هذا التوتر هو الذي يميز في الاساس المواقف الفكرية والاخلاقية والجسدية الفعالة .

وذلك لان التوتر يعتري الانسان بكامله فيتجاوز طبيعته بتغييره لها باستمرار فيصدر كلامه عندئذ عن ارادة ويصبح فعـــلا يدل على علاقة صحيحة بين الكلمات ووقائع الامور . حتى إذا ما فُقدت هذه الصلة بين الكلام والفعل لم يعد الكلام سوى سفسطة لفظية . وسبب ذلك انه اذا لم توجد هذه العلاقة بين الكلام كتعبير عن الفكر وبين الفعـــل كتحقيق لهذا الفكر في ذهننا لم ندرك العلاقة العكسية بين الفعل والفكر . فنفقد بذلك هذه الجدلية الدائمة التي تسير من نصر جـــديد الى كلام جديد يؤدي بها الى نصر جديد آخر .

ولم يكن الكلام في حركة الاصلاح ـ ولا سيما بعد وفاة كبار ممثلي هذه الحركة ـ يعتمد على ضرورة اجتماعية .

كما ان الكلام في الحركة الحديثة لا يهدف الى الفعالية ولا يصدر عن توتر عملي يؤدي بالكلمات الى الافعال .

ويقوم خطأ كل من المحدثين والمصلحين المشترك على أنهم لم يرجعوا الى المنبع الاول في تفكيرهم . وذلك لان المصلحين لم يرجعوا حقاً الى اصول الفكر الاسلامي كما ان المحدثين لم يرجعوا الى اصول الفكر الغربي .

ولا بد من التمييز بينهما في الميدان النفسي . فالسلفي يحمل في شخصه فكرة النهضة وهو اذا لم يحقق لها الشروط العملية تحقيقـــاً منظما فانه لا

---

(١) يستعمل حسب لفظ توتر tension وهو يدل على قول القرآن « خذ الكتاب بقوة ».

ينسى هدفها الاصلي . فلقد بلغ من وعيه لبيئته انه لا يطلب منها سوى « الواجبات » تاركاً المطالبة « بالحقوق » الى المحدثين . وهو حين يتم عمله ـ الذي ربما بدا ساذجاً وهو كذلك في اغلب الاحيان ـ فإنه يتوصل لمعرفة بيئته من خلال سعيه الخاص للاصلاح .

اما المحدثون فانهم يحتاجون لفكرة النهضة التي اصبحت ثانوية عندهم . ولم يدخل المحدث الى الحياة العامة في بلاده إلا في الميدان السياسي . واسنا ننكر هنا نصيبه من الجهد بل نريد ان نتبين طبيعة هذا الجهد وتحديد اهميته . فهو يعتقد ان المسألة ليست احياء العالم الاسلامي بل هي انتشاله من اضطرابه السياسي الحالي . وهذه الفكرة غريبة على الاسلام لانها لا ترى في الحقيقة مشكلة الانسان في الاسلام بل مشكلة النظم الاوروبية . ما مظاهر ذلك فهي محزنة في بعض الاحيان .

رأيت في شوارع الجزائر شاباً يبحث عن كسرة خبز في صندوق الاقذار وقد الصق اعلان فوق رأسه يدعوه إلى المطالبة «بدستور مستقل» .

ويبدو ان الداعين الى مثل هذا التناقض لم ينظروا قط الى رجل الشارع لمعرفة ما يتصل حقاً بمصيره المحزن .

كما ان الحركة الحديثة لا تقوم على اية عقيدة معينة . فهي تستعصي بذلك على التحديد في أساليبها وأهدافها . وسبب ذلك أنها لا تمثل الا نوعاً من الحمى . وطريقها الوحيد الواضح هو الطريق الذي يؤدي بالمسلم لكي يصبح زبوناً او مقلداً لا أصالة له لمدنية غربية تفتح أبواب مخازنها اكثر من فتح ابواب مدارسها حيث يمكن للتلاميذ ان يتعلموا وسائل استخدام نبوغهم الشخصي لتحقيق غاياتهم الشخصية .

وما علينا لكي ندرك ذلك الا ان ننظر الى تكوين البعثات المدرسية التي ترسلها مصر سنوياً الى الجامعات الاوروبية .

لقد كانت احدى هذه البعثات تتألف عام ١٩٤٧ تقريباً من ستين طالباً لم يذهب واحد منهم للتخصص في الدراسات الصناعية . كما ان غالبيتهم كانت من الاقباط . ونرى من هذا المثل ، كما نرى من غيره ، ان الحركة الحديثة لا تتجه الى الافعال والوسائل (١) بل تتجه نحو الاذواق والحاجات .

فاذا ما تعلل ممثلو الحركة الحديثة بالاستعمار كسبب لعدم فعاليتهم احسسنا بأن ذلك ليس الا حجة للفرار من مسؤوليتهم الحقيقية . ويتعلل أنصار حركة الاصلاح ايضاً بنفس الحجة الخاطئة . وذلك لانهم لا يبحثون عن العوامل الداخلية لعدم كفايتهم بل يكتفون بارجاع سبب ذلك الى السلطات السياسية الاجنبية.

كما ان كلا من الحركتين لا تهدفان لسد ثغراتهما بل الى اخفائها عن الشعب (٢) .

---

(١) تظهر نزعات العالم الاسلامي الحديثة هذه في حياته الاقتصادية وعلاقاته التجاريه . ويمكن التأكد من ذلك بمراجعة مجلة اقتصادية عالمية . وهاك مثلا على ذلك ملاحظتين استقيناها من مجلة بوم Boom التجارية عدد تشرين الثاني ١٩٦٩

دولة اسرائيل :

العرض : ترابة ، مرمر ، آميانت ، حقائب .
الطلب : حديد للصناعة والبناء ، منتوجات كيماويه وصيدليه اسفنج .
البلاد العربيه : (العراق ، شرق الاردن ، الكويت ، . . الخ)
العرض : لا شيء
الطلب : مجوهرات ، مساحيق ، عطور ، العاب ، حلويات ، معلبات ، ساتين ، حرير ، قطن . . الخ .

(٢) لا شك انه قد حدث تطور منذ كتابة هذه الاسطر أي منذ اربع سنوات تقريباً . فقد ظهر في العالم الاسلامي اتجاه جديد ولا سيما في مصر حيث انشئت وزارة للارشاد (١٩٥٦) .

ولايجب أن ننسى مع ذلك ان روح المبادرة، الذي هو المعيار الوحيد لفعالية الفرد ، قد اخذ بالظهور في بعض البيئات الفكرية ولا سيما في الجزائر . ومن المهم جداً ان يلاحظ ، كدليل على هذا الاتجاه الجديد ، ان بعض اطباء قسطنطين يتناوبون العمل يوماً في كل اسبوع لمعاينة الفقراء من السكان . نحس هنا ان المتعلم قد اخذ يندمج في حياة بلاده ليس فقط تمهيداً للانتخابات المعتادة .

وهكذا يمكن لكل من الجهد الفكري والسياسي أن يكونا وسيلة وليسا غاية . وهذا لا يعني ان جهد الحركة الحديثة السياسي لم يكن بدون طائل .

ولقد نجحت هذه الحركة ، مع ذلك ، في خلق وعي جماعي كانت البلاد الاسلامية تفتقد اليه منذ سنين . فهي بمثابة السهم الذي وان لم يشر الى الهدف الاساسي فانه يشير إلى بعض الاهداف العملية التي نستطيع بواسطتها انتزاع الجماهير الاسلامية من لامبالاتها وخمودها .

واذا لم تكن الحركة الحديثة قد حملت معها عناصر حضارية في الميدان الفكري ـ وذلك لعدم اتصالها اتصالا مباشراً حقيقياً بالمدنية الغربية ولانفصالها عن الماضي الذي تلا عصر ما بعد الموحدين ـ فانها مع ذلك قد ولدت حركة فكرية اخذتها عن الغرب . وهذه الحركة موضوع نقاش ولكن الفضل يرجع اليها في انها وضعت على بساط النقد جميع المعايير القديمة .

٣

فوضى العالم الإسلامي الحديث

العوامل الداخلية

« هيا بنا فلنهبط ولنقض على اباطيلهم » (كتاب اخلق من العهد القديم)

نظرنا الى الحوادث حتى الآن نظرة تجريدية تحليلية . وسوف ننظر اليها الآن من الناحية المعاكسة في حياتها وحركتها وعملها . هـذا لأن الحياة لا تقوم على التحليل بل هي عبارة عن جمع وتوحيد . فاذا كانت العناصر منسجمة وحدت بينها وإذا كانت متنافرة متفرقة لفقتها وجعلت منها عامل مفوض واضطراب .

والعالم الاسلامي اليوم مزيج من رواسب موروثة عن عصر ما بعد الموحدين وروافد ثقافيـة جديدة اتت بهـا حركة الاصلاح والحركة الحديثة . وليس هذا المزيج ، كما رأينا ، نتيجة توجيـه حكيم او تنظيم علمي (١) فهو اذن مزيج من عناصر قديمة غير مشذبة وعناصر جديدة غير مكررة . ولقد ولّد هذا المزيج من العناصر التي تنتمي لعصور مختلفة وحضارات متعددة ليس بينها اي اتصال طبيعي اوجد عالمـاً يعيش

---

(١) نحن بحاجة الى مثل هذا التنظيم في الميدان الثقافي . ويجب مع ذلك التمييز بوضوح بين الثقافة التي موضوعها الانسان والمجتمع وبين الثقافة التي موضوعها الدولة ولا يمكن المزج بين هاتين الثقافتين الا بعد جهل ماهية التربية .

رأسه في عام ١٩٤٩ بينما قدماه ثابتتان في عام ١٣٦٩ ويحمل في احشائه جميع العصور المتوسطة . فهو عالم متنافر تجتمع فيه اوجه التناقض والتعارض مضطربة حتى ان مفكراً كبيراً كاقبال بعد ان كان محافظا فيما يتعلق بالحركة النسائية قد عبر عن القلق الذي اعتراه في أواخر ايامه في هذا القول الذي ينم عن الحزن والاضطراب . « يماؤني انا ايضاً اضطهاد النساء بالحزن بيد أن المشكلة معقده ولست ارى لها من حل ».

يعتقد اقبال ان حل مشكلة النساء لا يمكن ان يكون في استمرار المرأة المسلمة على حالتها البائسة في الوقت الحاضر كما لا يمكن ان يكون في مجاراتها لحالة اختها المرأة الاوروبية المؤسفة (١) . ولكنه لم يستطع الوصول لحل وسط بين هذين الطرفين . وليس اضطراب فكره الا دليلاً على الاضطراب العام الذي يخيم على الفكر الاسلامي بعد مضي نصف قرن من الزمن على الاصلاح ومحاولة تقليد الغرب. وتبدو النهضة الاسلامية في الوقت الحاضر كخليط من الاذواق والاستعدادات من التردد والنفاق .

وهي تمتاز الآن بانها قد تبنت « اشياء » و « حاجات » بدلاً من ان تتبنى « افكاراً » و « وسائل » .

يجلس الاستاذ ، كما يجلس تلاميذه ، في المدرسة على الكراسي او المقاعد بينما مادة التعليم لا تزال كما كانت عليه منذ ستة قرون . كما ان

---

(١) عبر المؤلف عن موقفه من هذه المشكلة في دراسته الاخيرة عن « شروط النهضة » .

سلوك المسؤولين عن الثقافة العربيـة غريب ، فهم يسعون لتحقيق بعض الاهداف والغايات ولكنهم لا يريدون استعمال الوسائل الخاصة بهذه الغايات وتلك الاهداف . لم يقرروا بعد في نطاق التعليم الحديث مثلاً العودة إلى نظام العدد العربي الذي تبناه الغرب منـذ عهد جربرت . ولا يختص هذا الموقف المتناقض بهم وحـدهم وذلك لأن القاسم المشترك في ستة قرون من الانحطاط يعود بالنزعة الحديثة والنزعة الاصلاحيـة الى فوضى التلفيق بين البدع المستعارة والرواسب الموروثة. تظهر فوضى هذه العناصر المتنافرة في الفروق الهائلة التي نراها مثلاً بين البُرنس والغندورة وبين الصناعة الحديثة. ثم يصبح هذا الشذوذ مخيفاً حين نرى الانسان القديم وقد تعمم بعمامة ضخمة وراح يشرب المسكر في احد المشارب.

ولا تعطينا هذه الامثلة سوى فكرة غامضة عن هذه الفوضى . ففي كل مجتمع ناشيء عناصر قديمة الى جانب العناصر الحديثة وقد اخذت هذه العناصر الاخيرة عن مجتمع تم تنظيمه عـن طريق التحليل والتوفيق والخلق والتركيب .

ولهذا يحتاج هضم هذه العناصر الجديدة الى غربلتها غربلة دقيقـة ونقدها باستمرار لتعيين الظروف التي تعين على ملائمتها للمجتمع الذي يستعيرها .

ولقد اعترضت المجتمع الاسلامي امثال هذه المشاكل مرات عديدة. فكان في كل مرة يحلها بطريقة واعية موفقة ولا سيما حين اراد تعيـين طريقة الدعوة الى الصلاة .

وُجدَت هذه الحاجة الجديدة التي نشأت في المجتمـع الاسلامي في

المجتمع المسيحي فدعا الى الصلاة بواسطة النواقيس . ولهذا كان بامكان المجتمع الاسلامي ان يستعير هذه الطريقة . غير أن النبي والصحابة فضلوا ، بعد ملي من التفكير ، الاخذ بطريقة اصيلة الا وهي طريقة الصوت الانساني . فنشأت عندئذ وظيفة المؤذن . وهكذا زالت الحاجة لاستصدار النواقيس التي لم يكن المجتمع الاسلامي يقوم بصنعها . كما لم تكن مكة ولا المدينة بقادرة على مثل هذه الصناعة . فاذا كان المجتمع الاسلامي الجديد قد استعار « حاجة » عن المجتمع المسيحي المنظم فانه قد اوجد « الوسيلة » لسد هذه الحاجة الجديدة .

وهكذا دخلت استعمالات اخرى وتقاليد أخرى الى المجتمع الاسلامي الأولي بعد اختيار حكيم بين الوسائل والطرق المتعددة والنظريات المختلفة . فكان الشيء المستعار يدخل في الحياة الاسلامية بشكل طبيعي لانه كان يرضي غايات هذا المجتمع ووسائله . ولنضرب مثلاً آخر اختيار المنبر وهو نقل لكرسي الوعظ في المسيحية . غير ان هذا النقل لم يحدث على انه « حاجة جديدة » بل على انه ضرورة نفسية وامكانية فنية في المجتمع الاسلامي .

ولقد رأينا الفارابي ومدرسته ينقلون في الميدان العلمي فلسفة ارسطو المادية الى الفكر العلمي الاسلامي بعد أن يطبعوا هذه الفلسفة بطابع الاسلام. وسوف نرى القديس توما الاقويني يتمثل فلسفة ارسطو ليدخلها في المجتمع المسيحي الناشيء .

يجد العالم الاسلامي نفسه منذ قرن من الزمان امام مشكلة النقل بعد ان دفعته حركة النهضة الى الاخذ بكل جديد بينما تكبله التقاليد وتعيقه عن كل تقدم .

ويجب ان نشير هنا الى العوامل الاساسية في هذا الاضطراب وذلك العجز . وتعود بعض هذه العوامل الى مشكلة النقل عن المدنية الحديثة وهذه مشكلة بيولوجية تاريخية .

بينما تتعلق العوامل الأخرى بموقف المسلم تجاه مشاكل الحياة المعاصرة وهذه مشكلة نفسية جدلية .

لو نظرنا الى المشكلة الأولى لتراءى لنا أن الحياة الاجتماعية تسيطر عليها ـ كما تسيطر على الحياة العضوية ـ قوانين خاصة بها . ويعلمنا علم البيولوجيا ـ بعد دراسة شروط نقل الدم ـ ان هذه العملية تخضع لقوانين دقيقة يجب مراعاتها والا اضطربت العمليات الحيوية في الجسم الذي ينقل الدم اليه . وذلك لان جميع العناصر الدموية لا تتقبل جميعها النقل بسبب الفروق البيولوجية بين الأجسام . هذه الحقيقة البيولوجية صحيحة فيما يتعلق بالميدان البيولوجي التاريخي ، لأن العناصر الاجتماعية التي تميز الحضارات المختلفة ليست دائماً قابلة للنقل من حضارة الى أخرى.

ولقد لوحظ هذا في عام ١٩٣٣ في اميركا عند فشل تحريم شرب الكحول . إذ أحدث ادخال هذا النظام الجاف اضطراباً اجتماعياً يوازي خطره خطر تعاطي الخمور الذي يريد تحريمه . ولا يمكن القول بان ضمير الامة الاميركية وتركيبها الفزيولوجي يتعارضان « والنظام الجاف » او أن جسم الجاهلي كان اكثر استعداداً لقبول هذا النظام . ومع ذلك فقد نجح التحريم في البلاد الاسلامية بفضل تحريم القرآن فاصبح هذا التحريم جزءاً من نفسية الجاهلية وعاداتها .

ولهذا فان العناصر الاجتماعية الجديدة لا يمكن ان يتمثلها المجتمع الذي يستعيرها الا بشروط معينة تكون اما لحاجة ملحة او لامر سامٍ . ولكن المجتمع الاسلامي لم يأبه لهذه الشروط منذ نصف قرن من الزمن .

فقام بنقل البدع الجديدة دون اي معيار أو نقد تحت تأثير الضغط وحباً بالتقليد ولعجزه عن التفكير .

وما الاختلاط والاضطراب اللذان يخيمان في كل من الميدان الفكري والاخلاقي والسياسي الا نتيجة لهذا الخليط من الافكار الميتة والرواسب الغير المشذبة والافكار المستعارة التي يعظم خطرها بعد فصلها عن بيئتها التاريخية في اوروبا .

يشتهر في المجتمع الاوروبي القول بان « الانسان لنفسه والله للجميع » ويعتمد هذا القول على التنظيم الاجتماعي في اوروبا . بينما نرى ان هـذا المبدأ ميت في المجتمع الاسلامي حيث حـل محل المبدأ القائل بان « كل انسان للجميع والجميع لكل انسان » الذي كان المبدأ الاجتماعي الاساسي في الاسلام .

وكثيراً ما ينقل المبدأ الميت من نصه العلمي فيزداد بذلك اثره المضر. وهكذا كان أن أصبح مبدأ داروين القائل « باختيـار الافضل » قولاً يتردد على السنة رجال الاخلاق المحدثين دون ان يراودهم الشك بأن ما يصدق في علم الحيوان ربمـا كان خاطئاً في علم الاجـتماع حيث يعني « الافضل » غالباً « الا ردأ »

ولقد ولد هذا المبدأ في اوروبا نفسها بعد فصله عـن نصه العلمي فلسفات عنصرية كفلسفة جوبينو Gobineau وروزنبرج Rosenberg

بعد ان كان في الاصل سبب المنافسة التي ادت الى تطور العالم الغربي المادي . فاذا بالانسان « الافضل » لا يعتم ان يصبح الانسان الذي لا يستنكف عن اتخاذ اية وسيلة تضمن له تفوقه على « الاغبياء » الذين يعيشون اسرى ضمائرهم. وهكذا نشأت عصابات السلب في المجتمع الغربي الذي جعل من مبدءٍ حيواني مبدءً اخلاقياً .

تلك هي الافكار المضرة . حتى بالمدنية التي ولدتها. التي تتسرب غالباً الى النهضة الاسلامية فتتراكم في مجتمع مليء ببقايا انحطاطه وتفككه ؛ ولا يخيل الينا اليوم ان هذا المجتمع قد عزم على نقد هذه الافكار التي نقلت خلال نصف قرن من الزمن .

ومع ذلك فان غربلة الافكار الميتة عمل اساسي في كل نهضة صحيحة. ولذلك تعترض المجتمع الاسلامي مشكلان رئيسية لا يد له فيها فتقوم الصدفة مقام الافكار الناضجة والمبادرة الحكيمة :

٢ ـ تمتاز الناحية الثانية من المشكلة التي نحن الآن بصددها بالعجز عن التفكير والعمل. وهي تدل في الميدان النفسي على فقدان الجدلية بين الفكر وتحقيقه العقلي . فلا تكون الفكرة والعمل الذي تدعو اليه وحدة لا انفصام فيها كشأن كل تخطيط كامل للعمل الايجابي . فإذا ما جللنا كل ما يتعلق بالاقتصاد العام في النهضة وجدناه ناقصاً في احدى نواحيه . ووجدنا ان هناك « فكرة » لا تتحقق او ان هناك « فعلا » لا يعتمد على اي جهد فكري .

نلقى هذه الثغرة في نشاط الفرد كما نلقاها في الميدان العام . فالفكر الاصلاحي مثلا يهدف لاصلاح الانسان بيد اننا لا نجد المصلح حيث

يجب ان يكون الناطق بلسان فكرته ، حيث يوجد موضوع اصلاحه ، في المقاهي والاسواق وفي كل مكان تظهر فيه العيوب الاجتماعية التي يريد تقويمها .

بل نحن نكتفي بتعليم الاطفال حسب برامج لا يبدو فيها أي أثر للاصلاح ، او اننا نقوم بالقاء المواعظ من على المنابر امام جمهور من الناس لم ندرسه في بيئته وجوه بل قدم ليستمع البنا فيصبح الطفل الامي متعلماً واليافع مستمعاً بينما برنامج المدرسة الاصلاحية لايختلف في شيء عن برنامج المدرسة القديمة وتصبح كلمة « الاصلاح » سمة تدل على وجوه نشاط مفيد ولاشك ولكنها منفصلة عن العقيدة الاصلاحية .

ليس الانفصال بين الفكر والعمل السبب الوحيد لجمود الفكر الاسلامي ، ذلك الجمود الذي يرجع ايضاً الى الاختلاط بين جوهر الحوادث وظواهرها .

تقوم الحركة الفكرية الحديثة منذ نشأتها على نوع من الابهام . وذلك لأن العلم الذي تنقله هذه الحركة عن جامعات اوروبا ليس وسيلة لاصلاح اسباب الحياة بل هو وسيلة للظهور بمظهر افضل في المجتمع . كما ان هذا العلم لاقيمة له في استبطان الذات حين نريد معرفة انفسنا لتغييرها .

وكذلك لاقيمة لهذا العلم . في اكتشاف البيئة التي يجب علينا ان نعرفها قبل اصلاحها . بل يكتفي هذا العلم بذاته فلا يتعداها ويعيش ضمن قوالبه المعهودة .

ولذا فقدت الفعالية في حياة العالم الاسلامي حيث لم نشهد حتى الآن ظهور شخصية من تلك الشخصيات البارزة في تاريخ المعارف الانسانية .

ولضعف الحركة الفكرية هذا سببه العضوي الذي قال عنه جب

خطأ ـ لأن الكاتب الانجليزي يعمم كثيرا ملاحظاته الدقيقة ـ بانه صفة « طبيعة » في الفكر الذي يكتفي بمعرفة المعلوم فقط .

فاذا كان لابد هنا من الاشارة الى فقدان « التوتر الفكري » الذي يعتمدعليه كل علم يسعى لمعرفة المجهول فليس ذلك الا عجزاً خاصاً بالفكر الاسلامي بعد عهد الموحدين . ولم تغير الحركة الحديثة ولا الحركة الاصلاحية من الموقف الفكري في هذا العدد .

وذلك لان الفكر يتعلق دائماً بالنفس فاذا مـــافقدت هذه النفس صفاءها فقد الفكر عمقه ولذلك رأينا ان حركة الاصلاح لم تهب النفس هـــذه الطاقة الضرورية للارتفاع بها عن حالتها التي كانت عليها بعد عصر الموحدين

ولاشك ان حركة الاصلاح قد اضفت على هذه النفس الحركة ووضعت لها الاهداف وبثت فيها الميل الى التقدم ولكن هذه الحيوية ظلت غير مجدية لانها لم تكن جزءاً من عقيدة دقيقة عن الفعالية . فنشأت بذلك النهضة ولكنها لم تكن موجهة توجيها منظماً . حتى ليخيل الينا ان هناك قوى كانت مقيدة قد تحررت دون أن يعين لها الدور الذي يجب عليها القيام به . ولهذا يضطرب العالم الاسلامي الحديث اضطراب الماء في وعاء مقفل او اضطراب انبوب الكيمائي حيث لاتخضع التفاعلات التي يجريها لاي قانون معين .

تلك هي مأساة الحركة التي تريـــد التحرر من الجمود كما هي ماساة الفكر الذي يناضل ضد الاضطراب نفسه .

وهي ايضا مأساة الانسان الـــذي استيقظ ولايـــدري ماذا يجب أن يفعل .

ويقوي من هذا الضعف العضوي ضروب من الشلل لاسيما في ميادين الاخلاق والاجتماع والفكر .

واخطر انواع هذا الشلل الذي يؤدي إلى سائر الانواع الأخرى ألا وهو الشلل الاخلاقي . ومصدر هذا الشلل معروف وذلك لأنه القول بأن الاسلام « دين كامل » حقيقة لا يعترض عليها انسان . بيد انه نتج عن هذه الحقيقة ـ لسوء الحظ ـ في ضمير الاسلام بعد عهد الموحدين قول آخر الا وهو « نحن مسلمون » إذن « نحن كاملون » . وهـذا استنتاج مضر يقضي على كل تكامل في الفرد بالقضاء على كل سعي عنده و التكامل .

كان عمر بن الخطاب في الماضي يعترف باخطائه ويبكي للتكفير عنها. ولقد مضى زمن طويل على العالم الاسلامي بعد ان كف عن مثل هـذا التأنيب للضمير .

ولم نعد نرى اي مخلوق يشعر بوخز الضمير لخطأ ارتكبه . ولذلك تخيم على الطبقات الحاكمة طمأنينة اخلاقية تامة فلا يقوم أي حاكم بالاعتراف باخطائه امام الناس .

وهكذا كان ان تردى المثل الأعلى الاسلامي الذي كان يقوم عـلى الحياة والحركة في الغطرسة ولاسيما احساس التقي الورع بانه يحقق الكمال بتأديته للصلوات الخمس كل يـوم دونما ايـة محاولة لمراقبة النفس وتحسينها ـ فهو قـد بلغ الكمال التام الذي يشبه كمال الموت والعدم . وهكذا يشوه هذا الاكتفاء الذاتي عملية التقدم النفسي في الفرد والمجتمع فيصبح المتوسطون من الناس الذين جمدوا في نقصهم المثل الأعـلى في الاخلاق لمجتمع لم تولد الحقيقة فيه سوى النزعة الفنائية .

هناك فرق اساسي بين الحقيقة كمفهوم نظري بسيط لوضح لنا التفكير التجريدي وبين حقيقة فعالة تـدل على افعال محسوسة . كما ان الحقيقة

يمكن ان تصبح مضرة كعامل اجتماعي حين تكف عن الحث على العمل بل تشله وذلك حين لا تتفق ودوافع التفكير والاصلاح بـل تصبح تعلة للجمود الفردي والاجتماعي . فتصبح حينئذ مصدر عـالم مشلول هاجمة كل من رينان ولا منيه بقولها ان الاسلام «دين الجمود والتأخر »

يمنع هذا الشلل الاخلاقي ـ الذي هو ولا شك بقية من بقايا عصرما بعد الموحدين ـ المجتمع الاسلامي عن الحركة فيعجز عن بذل الجهد الضروري لنهوضه . وما الشلل الفكري سوى ثمرة لهـذا الشلل الاخلاقي ، وذلك لان الفرد حين يكف عن التكامل الاخلاقي يكف في نفس الوقت عـن تغيير اسباب حياته كما يكف عن التفكير بهذا التغيير . ثم يتجمد الفكر رويداً في عالم لم يعد يفكر لان تفكيره لم يعد له اي موضوع اجتماعي .

ويقوم التقليد على نكوص عن الجهد العقلي وعـن الاجتهاد اللذين كانا رائدي الفكر الاسلامي في اوج ازدهاره

ولقد كان التجديد الذي نشأ في العالم الاسلامي بفضل تأثير محمد عبده تجديدا ادبياً لم يمنع الفكر الاسلامي من الخضوع لقيود التقاليد الخانقة . كما ظل هذا الفكر في الميدان الاصلاحي ضمن نطاق الموضوعات القديمة الا وهي علم الكلام والفقه وعلم اللغة ، ولم يتعد في اي واحد مـن هذه الموضوعات الحدود التي رسمها زعماء الاصلاح .

اما فيما يتعلق بالحركة الحديثة فيبدوأن هذه الحركة قد خطت خطوة أوسع ولا سيما على يد طه حسين . ولا تؤلف كتب هذا الاديب مذهبا تتفرع عنه نزعات جديدة .

وهذا لا يمنع من ان كتبه قد اوجدت حركة فكرية بفضل ما فيها من غرابة وميزات ادبية . ومن شان دراسة هذه الحركة الفكرية ومناقشة افكارها ان تؤدي الى نشاط فكري .

ومع ذلك تظل هذه الحركة متقطعة لا صلة توحد بينها . ولا يملك العالم الاسلامي المجامع التي تقود الحياة الفكرية وتشرف على اقامة العلاقات وتبادل الآثار كما حدث في الماضي بين مدرسة الغزالي ومدرسة ابن رشد . ولهذا لم تؤثر كتب طه حسين تأثيراً عميقاً في الاوساط المتعلمة في افريقية الشمالية . كما أن كتب اقبال لم تجد لها اي صدى فيها . ويرجع تفسخ الحياة الفكرية ايضاً الى الاسباب الخارجية التي يسميها الاستاذ جب بعوامل الضغط . ومع ذلك يظل السبب الداخلي العامل الاول في هذا الصدد ، لان الفكر — حتى في البلاد الاسلامية التي تخلصت من حماية الاستعمار — لم تتكامل بعد شخصيته ولم يثبت اقدامه ويدلل على قيمته الاجتماعية كوسيلة للعمل واساس مهم للنشاط(١)

يظل العلم في اغلب الاحيان جلية وزينة اكثر منه وسيلة من وسائل النهضة . وليس الفكر في الجزائر خاصة الاضرباً من التزين لا يدخل تحت سيطرة قانون المنطق الشكلي العملي بل يخضع لفن البلاغة بعد عصر الموحدين(٢). فاذا ما ظل الفكر غير فعال اصبح الفعل فوضى واضطراب وليس هذا سوى شكل من اشكال الشلل الاجتماعي .

---

(١) يدل مصير الاخوان المسلمين في مصر وجماعة المفكرين في العراق وتركيا على مكانة الفكر في العالم الاسلامي الحديث .

(٢) شكرتني مؤخراً جريدة على كتابتي مقال « حياة » به صفحتها الاولى .

وذلك لان كل فعل حقيقي انمايقوم على اتصال مباشر بالفكر . وكل فقدان لهذا الاتصال يدل على فعل اعمي غير منسجم هو ليس سوى جهد لا داعي له . فاذا ما فقد الفكر اصبح الفعل ناقصاً ومستحيلاً ، واندفع الانسان في تقدير ذاتي للحوادث يسيء الى طبيعة هذه الحوادث واهميتها وذلك اما بالتعظيم من شأنها او التقليل من هذا الشأن .

نرى هذين الضربين من الاساءة في العالم الاسلامي الحديث في النزعة الى القيام « بالاشياء الهينة » التي تؤدي الى العمل الاهوج كما حدث في فلسطين او النزعة إلى القيام بالاشياء المستحيلة التي تشل الفعل كما يحدث غالباً في افريقية الشمالية .

وتقوم هذه النزعة الاخيرة في الجزائر على ثلاثة مبادىء نسردها كما يلي :

ـ لا نستطيع عمل اي شيء لاننا جاهلون .

ـ لا نستطيع عمل اي شيء لاننا فقراء .

ـ لا نستطيع عمل اي شي لاننا مستعمرون .

نجد هذه الفقرات الثلاث في كل مكان . فيفسر لنا بواسطتها ذو الهمة عجزهم عن فعل اي شيء . كما يستخدمها المشعوذون لتبرير دعاياتهم المثمرة في ظل الاستعمار . ومع ذلك فان اقل جهد للبحث والتنقيب يقضي على هذه الادعاءات فإذا بهذه « الحقائق » لا تعتمد الا على الخرافات والاوهام .

ويكفي للتدليل على ذلك مقابلة هذه الموانع التي تحول دون العمل باصول المشكلة الحقيقية .

أ) نحن في الواقع جاهلون وسبب هذا الجهل هو الاستعمار . ولكن ماذا يفعل المتعلمون بعلمهم ؟ ماذا يفعلون بثقافتهم التي يجب انتستخدم كوسيلة للقضاء على الامية ؟

رأينا في فترة الاحتلال الالماني المتعلمين الاسرائيليين يهتمون بما يمكن للفئة المختارة ان تؤديه من خدمة نحو الشعب بالرغم من المراقبة الشديدة . ولا شك ان عدد المسلمين من صيادلة واطباء واساتذة الذين يفكرون بتثقيف الشعب في الجزائر قليل جداً . واذا كانت الفئة المختارة من المسلمين قد طالبت في دعايتها الانتخابية بزيادة عدد المدارس فما جدوى زيادة هذا العدد إذا لم « نحسن » التعليم في هذه المدارس ؟ وذلك لأن مضاعفة العدم لا تؤدي إلا للعدم . فاذا كان الفرد المتعلم غير فعال واذا كان التعليم لا فعالية اجتماعية له فإن اسطورة « الجهل » خطرة لانها تخفي وراء مشكلة الانسان الامي مشكلة اشد منها عمقاً هي مشكلة انسان ما بعد الموحدين سواء كان امياً ام متعلماً .

ب) وليست اسطورة الفقر اقل خطراً من اسطورة الجهل .

ويكفي للدلالة على ذلك ان ننظر الى فعالية الامكانيات المالية الاجتماعية عند المسلم الغني . وذلك لان الطبقة البورجوازية المسلمة ، بالرغم من ثروتها ، لا تزال اقل فعالية من الطبقة الفقيرة المعدمة . ليس هناك كثير من المسلمين الاغنياء الذين يهتمون بتثقيف طفل من اطفال الشعب ثقافة فكرية أو صناعية او بتشجيع مؤسسة لها فائدتها العمومية فيضحوا من أجل ذلك بشيء من مستوى حياتهم .

ولا يختص هذا النقص بالفرد وحده بل نجده في المنظمات الثقافية التي تتراجع أمام بعض المصروفات الاضافية لتشجيع الثقافة وتتسابق في التبذير الذي لا طائل منه .

ويبدو ان الفقير ليس اقل تبذيراً في هذا السبيل .

ولقد تحققت من ذلك في مدينة صغيرة من مدن منطقة قسطنطين حيث توجد المؤسسة الخيرية الوحيدة . وهي مدرسة تعيش بصعوبة على ميزانية متواضعة تبلغ الستة ملايين من الفرنكات(١) . ولقد اتاح لي حساب اجمالي قمت به الاطلاع على أن الفقراء قد صرفوا في ليلة واحدة اكثر من مئتي الف فرنك للذهاب الى السينما ومشاهدة السيرك وارتياد بعض المقاهي .

نستطيع بالاعتماد على بعض الارقام من هذا القبيل تقدير فعاليةرأس المال الاسلامي اي الصلة بين ميزانية ما يفيد وميزانية ما لا يفيد فيكون التبذير في الحالة التي نحن بصددها ٩٥٪ . يدلنا ذلك على التبذير الذي يخيم في جميع ميادين الحياة الاسلامية الحديثة . وترتفع هذه النسبة في الحفلات التي تستنزف دماء ميزانية جميع العائلات .

ويمكن ان نشاهد ذلك في اية ناحية من نواحي الحياة الخاصة او العامة . ولدينا شاهد بيّن على ذلك في ميزانية بعثة الجامعة العربية الى هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٨ .

فقد كانت هذه البعثة تملك ما يقرب من الخمسمئة الف دولار .

---

(١) ميزانية عام ١٩٤٩ .

ومع ذلك لم تنشر خلال اقامتها في باريس اي منشور لعرض القضية الفلسطينية على الرأي العام بينما كان الاسرائيليون يغمرون العالم بدعايتهم . وهذا الفرق الهائل بين الوسائل التي نملكها والنتائج التي نحصل عليها ميزة نجدها في جميع اوجه النشاط العامة الاسلامية .

نحن ولا شك فقراء بيد اننا لا نهتم اي اهتمام بمداواة ذلك باستعمال حكيم للوسائل التي نملكها . حتى انه لا يزال هناك مؤلفات فكرية لها اهمية كبرى لا تزال تنتظر نشرها لفقدان الوسائل المالية بينما تذهب اموال الدولة الى حيث لا ندري(١)

وليست حالة البعثة العربية الى باريس بالحالة الفريدة الشاذة التي ترجع المسؤولية فيها الى باشاوات مصر . فحيثما وُجد المال سواء كان في الميدان الخاص ام الميدان العام رأينا سوء استعماله . ولو اننا زدنا ميزانية البعثة العربية فلن تزداد بذلك امكانياتها وفعاليتها بل انما تزاد بذلك حاجاتها ومصروفاتها . ليست المشكلة إذن مشكلة مالية بل هي مشكلة نفسية فنيه الا وهي مشكلة « توجيه رأس المال »(٢)

ت) وأخيراً هناك الاسطورة التي تحمل اسم الاستعمار وتشل جميع النوايا الطيبة وتستخدم في بعض الاحيان تبريراً لكثير من ضروب النصب الاخلاقي والسياسي . ومن المهم ان نلاحظ ـ فيما يتعلق بالاساطير التي

---

(١) يجب ان نشير هنا الى المرحوم علي الهامي . لا شك انه سيبنى له قبر يليق به بيد انه ليس هناك اية منظمة من المنظمات تعنى بنشر مؤلفاته .

(٢) راجع الفصل الذي يبحث هذه المشكلة في كتابنا عن « شروط النهضة »

تحدثنا عنها ـ ان السبب المانع لم يأت من الخارج بل هو سبب داخلي تولد عن نفسية الناس واذواقهم وعن الافكار والعادات وكل ما يكوّن روح عصر ما بعد الموحدين الا وهي القابليـــة للاستعمار . ولا شك ان نصيب الاستعمار ضخم لأنه يقضي على كل تفكير كما يقضي عـــلى كل محاولة للنهوض الاخلاقي والاقتصادي اي على كل ما يمكن ان ينهض بالحياة المحلية(١)

يقوم المستعمر بالتقليل من شأن الانسانية التي تخضع لسلطاته وقانونه وقد اشرنا الى ذلك بعبارة « العامل المستعمِر »

غير أن هذا العامل لا يؤثر في قيمة الفرد الاساسية .

ومع ذلك نرى الفرد قد فقد نشاطه وفعاليته في الميادين التي لا يمكن للضغط الاستعماري ان يكون المسؤول عنها .

يعمل الاستعمار إذن « كحقيقة » لانـــه يحول فعلاً دون العمـــل و « كاسطورة » فيصبح عبارة عن تعلة او قنـــاع يخفي وراءه القابلية للاستعمار .

هناك تطور تاريخي لا يجب اهماله وإلا جهلنا جوهر الاشياء ولم نر منها سوى الظاهر . ولا يبدأ هذا التطور بالاستعمار بل بالقابلية لهـــذا

---

(١) هل هناك من دليل اوضح على ذلك من طلب السلطات الفرنسية في مراكش الى الاميركيين بان لا يدفعوا لعمالهم من المراكشيين اجوراً مرتفعة ؟ او ليس طلب « الحامي » انقاص نصيب « محميه » من الخبز عملا من اعمال التمدين ! ؟

(٢) راجع شروط النهضة »

الاستعمار التي تحدثه . فليس الاستعمار سوى نتيجة القابلية له لأنه يدلنا على التطور الاجتماعي الذي اوجد الكائن الذي يمكن استعماره . ولايدرك هذا الكائن قابليته للاستعمار إلا متى استُعمِر . فيضطر حينئذ الى التخلص من طابعه المحلي ليصبح غير قابل للاستعمار

وهكذا يمكن فهم الاستعمار كضرورة تاريخية .

ويجب ان نميز هنا بوضوح بين بلد محتل وبين بلد مستعمر . ففي الاول مركب سابق من الانسان والارض والزمن لا يمكن معه استعمار الفرد واما في الآخر فان جميع الظروف الاجتماعية الموجودة تدل على قابلية الفرد للاستعمار . فيصبح بذلك الاحتلال الاجنبي استعمارا .

ولذلك لم تستعمر روما اليونان بل احتلتها كما ان انجلترا التي استعمرت اربعمئة مليون من الهنود لانهم كانوا قابلين للاستعمار لم تستعمر ارلندا التي خضعت لحكمها دون ان تستعمر . وعلى العكس فان اليمن التي لا تزال مستقلة لم تستفد من هذا الاستقلال لانها كانت قابلة للاستعمار ، وذلك بعجزها عن القيام بأي مجهود اجتماعي . ولم تحتفظ هذه البلاد باستقلالها إلا بفضل الصدفة والظروف العالمية . وكذلك لم تستفد مراكش من التجربة التي حدثت في الجزائر بعد استعمارها منذ قرن من الزمن بالرغم من احتفاظ مراكش باستقلالها حتى عام ١٩١٢ . حتى إذا ما وقعت فعلا في نير الاستعمار اخذت تسعى بحق للنهوض بفضل سيدي محمد بن يوسف .

ليس الاستعمار اذن السبب الاول في نقص الرجال وكسل الاذهان في البلاد الاسلامية .

ويجب علينا ان نتتبع تطور الاستعمار منذ نشأته كي نصدر حكماً ذا قيمة في هذا المجال وان لا نكتفي بدراسته في الوقت الحاضر . اي يجب ان ننظر اليه نظرة اجتماعية لا نظرة سياسية . فندرك حينئذ ان الاستعمار يتسرب الى حياة الشعب المستعمر كعامل مناقض يدفعه الى التغلب على قابليـــة الاستعمار . حتى لكأن هـــذه القابلية للاستعمار تصبح بواسطة الاستعمار الذي يعتمد عليها رفضا لذاتها في ضمير المستعمر فيسعى حينئذ لان يصبح غير قابل للاستعمار .

وليس تاريخ العالم الاسلامي منذ اكثر من نصف قرن مـــن الزمن سوى تطور تاريخي لهذا التعارض الذي ادخـــله الاستعمار في الاوضاع التي ميزت القابلية للاستعمار وكونتها . للاستعمار اذن ناحية ايجابية بمعنى انه يكشف عن الامكانيات التي ظلت مدة من الزمن جامدة. وبالرغم من ان الاستعمار عامل سلبي مـــن ناحية أخرى ـ لانه يحاول هدم هـــذه الامكانيات بتطبيق العامل المستعمر على الفرد ـ فان التاريخ لم يسجل قط دوام استمرار الاستعمار .

وذلك لان قوى الفرد الاساسية تتغلب في النهاية على اوجه التعارض فيـــه . لا يأبى المستعمر للنهوض بضحيته بل يشلها كما تشل العنكبوت فريستها التي تقع في شباكها .

وهو يغير ظروف حياة الكائن المستعمر تغييراً اساسياً يؤدي في النهاية الى تغيير روحه .

من المهم إذن حين ناخذ بدراسة الوضع في البلاد المستعمرة ان لا نفصل هاتين الفكرتين المختلفتين .

الاستعمار والقابلية للاستعمار . والطريقة الوحيدة لتحديد اسباب التعطل تحديداً علمياً هي تحديد نسبة تعلق هـذه الاسباب بالاستعمار اوبالقابلية للاستعمار .

بهذا يستطيع العالم الاسلامي تحدد الوسائل الخاصة التي يمكنها ان تقضي على اوجه النقص التي شلت حتى الآن نهضته . وذلك لان نجاح اية طريقة سواء كان نجاح عقدة سياسة او اصلاحية ـ انما يتعلق قبل كل شيء بهذين الجانبين من المشكلة . ويؤدي النظر الى ناحية دون الأخرى الى الخطأ في تبين المشكلة . (١)

وتختفي عادة هذه الطريقة في تعمية المشكلة بسوء الحظ وراء قناع الوطنية ، تلك الوطنية الجوفاء الفارغة . فهل هناك مـن وسيلة لخدمة الأستعمار افضل من الابقاء على عوامل النقص والشلل التى لاتزال منذ ثلاثة او اربعة قرون الدليل الواضح على مجتمع يجتاز الحالة التي تسبق قابليته للاستعمار ؟ هذا ولابد من الوصول لنتيجة منطقية عملية الاوهي انه كي نتحرر من الاستعمار يجب علينا التحرر اولاً من سبب هذا الاستعمار الاوهي القابلية له .

أما ان لايملك المسلم جميع الوسائل الضرورية لنمو شخصيته وتضح مواهبه فان سبب ذلك الاستعمار. واما ان لايفكر المسلم حتى في استخدام

---

(١) اضع امام نظر القارىء نصاً لماركس ، وهو ليس بالمثالي اوالخيالي ، وجه عام ١٨٥٠ في صورة رسالة الى من سماهم « كيمائيي الثورة » فقال : « يعتقد هؤلاء الكيمائيون الرغبة هي الدافع الى الثورة بدلا من الظروف الحقيقية . إما نحن فنقول للعمال : « سوف تقضون خمسة عشر اوعشرين اوخمسين عاماً في حروب اهلية أو حروب عالمية . وليس هذا فقط لتغيير الظروف الخارجية بل لتغيير انفسكم لكي تصبحوا فيما بعد اهلا للحكم السياسي » – رسالة الى ولش ايلول عام ١٨٥٠

الوسائل التي يملكها والقيام بالمزيد من الجهد لرفع مستوى حياته ولايستغل وقته من اجل ذلك بل يستسلم - على العكس - لمشاريع المستعمر ويعمل على نجاحها فان هذا ما يُسمي بالقابلية للاستعمار .

وهكذا إذا ما حاولنا تصنيف مختلف الاسباب التي تعوق أوجه النشاط في العالم الاسلامي الحديث وتخفف من تقدمه وتنشر القلق والعجز والفوض في حياته يتراءى لنا ان الاسباب الداخلية التي تنتج عن القابلية للاستعمار هي الاسباب الاساسية .

يظهر اثر ذلك في الميدان السياسي الذي يدل على المضمون الاخلاقي والفكري والاجتماعي في بيئة من البيئات وعند شعب من الشعوب .
هناك اولاً صلة مباشرة بين السياسة والحياة وذلك لأن السياسه عبارة عن تنظيم للحياة .

وما السياسة في جوهرها سوى العمل على تنظيم التغييرات المتتالية التي تحدث في اوضاع الناس .

تجعل هذه الصلة - التي تحدد وضع الفرد كفاية لكل سياسة - من الفرد ايضاً عاملاً للوصول الى هذه الغاية .

وهكذا يكون الانسان ، من جهة ، القائم بهذه السياسة ومن جهة أخرى موضوع هذه السياسة . غير ان وضع انسان مابعد الموحدين هو وضع انسان مستعمر وقابل للاستعمار .

والصلة هنا بين الذات والموضوع هي الصلة بين المستعمَر والمستعمِر . ويدلنا هذا على خطأ السياسات المتبعة في افريقية الشمالية التي تهدف المستعمِر فقط . فهي اشبه بالأسد الذي يطلب من سجانه مفتاح سجنه . يجب إذن تحديد وضع الناس في مرحلة من مراحل تطورهم توضع السياسة التي تناسب هذه المرحلة .

ولاشك انظروف الحياة تتعلق بحالة البيئة العامة .

ولهذا يجب ان نفهم من هذه المرحلة « المرحلة الحضارية وليست المرحلة السياسية » لأن المرحلة السياسية ليست سوى انعكاس للمرحلة الحضارية فهناك ملكيات يسير فيها الناس حفاة كما ان هناك جمهوريات يموت الناس فيها من الجوع .

ان النظرية السياسية الحديثة عن العالم الاسلامي في الحقيقة غير متجانسة، وقد نقلت الى العالم الاسلامي من الخارج دون ان تتفق وحالته الخاصة. وذلك لأنه لم يبحث في هذا الميدان ـ كما هو الحال في الميادين الأخرى عن الوسائل بل استعيض عنها بالحاجات المصطنعة والصيغ الفارغة .

لسنا ، في الحقيقة، بحاجة الى تجميع عناصر مركّب ملفق بل نحن بحاجة إلى الوصول الى العناصر الاساسية في هذا المركب عن طريق التحليل الا وهي : الانسان والارض والزمن .

ويمكننا دراسة مستوى المدنية بمراقبة الانسان وهو يحاول التوفيق بينه وبين بيئته . ويقوم الانسان بهذا التوفيق في مرحلة الحياة الراكدة ببذل « اقل جهد » فيقاوم البرد بحفظ طاقته الحرارية واستهلاك اقل قدر ممكن منها . ولهذا يقوم بأقل مايمكن من الحركات فيقبع في مكانه وينطوي على نفسه . وهو يقاوم الجوع بأكل ماتنبته الطبيعة فيأكل الجذور مثلا . وهكذا يوفق الانسان في هذه المرحلة ، بينه وبين بيئته ببذل اقل ما يمكن من الجهد .

واما في مرحلة الحياة النشيطة فإن الانسان يوفق بينه وبين بيئته ببذل المزيد من الجهد . فينظم حياته ويقاوم البرد بايجاد نظام للتدفئة . حتى اذا ما فقد ذلك في بعض الظروف قام بصرف طاقته الحرارية بتأدية بعض الحركات . كما انه يهيء التربة بطريقة علمية لتمده بالغذاء ، بينما

نرى الانسان في مرحلة الحياة الراكدة يطلب غذاءه من الارض دونما اية تهيئة .

تمتاز المدنية والنهضة في اول عهدها بانها انتقال من مرحلة الحياة الراكدة الى مرحلة الحياة النشيطة .

ولا يمكن فهم مثل هذا الانتقال في التاريخ فيما لو احتاج لوسائل وقوى غير الوسائل والقوى التي توجد في البيئة الطبيعية التي يؤثر الانسان بها في نفسه وفي ارضه وزمانه .

ويصح هذا فيما يتعلق بالانسان المستعمر الذي يجب عليه العثور في بيئته على الوسائل الاولية الاساسية بالرغم من وجود الاستعمار ووجود القابلية له . فالتربة هي عماد حياته المادية لأنه يعيش من ثمراتها كما ان الزمن في خدمته . فهو يملك إذن جميع الاسباب الضرورية للحصول على وسائل اقوى وحياة أفضل .

يعني هذا انه يستطيع تغير وسائله الاولية الى وسائل اكمل كلما تغير هو نفسه وادرك انسانيته وما تتطلبه هذه الانسانية منه من مسؤوليات .

فاذا ما طبقنا هذه الاعتبارات العامة على النشاط السياسي تبين لنا ان هذا النشاط يجب ان يقوم على مبدأين كي يكون جزءاً من علم الاجتماع التطبيقي وليس مجرد دعاية .

١) اتباع سياسة تتفق ووسائلنا .

٢) الحصول على وسائل سياستنا .

ينتج عن ذلك مرحلتان متتابعتان :

١) مرحلة اتباع سياسة تتفق والوسائل الاساسية التي نملكها الا وهي الانسان والارض والزمن ولا يعني ذلك عدم استخدام الوسائل

الثانوية الـــتي تسمح بها الفرص والاحتمالات . غير ان هذه الاحتمالات ليست الاساس الاولي لهذه السياسة بل هي حظوظ وامكانيات اضافية تتيحها لنا الصدفة . حتى إذا ما اعتمدنا كثيراً عـــلى هذه الامكانيات وتلك الحظوظ افضى بنا ذلك الى رومانطيقية سياسية .

٢) مرحلة تغيير الوسائل الاولية تغييراً تدريجياً الى وسائل كاملة تستطيع بدورها تغيير جميع ظر وف البيئة .

ويجب ان تؤدي هذه المرحلة الى القضاء عـــلى الاستعمار في جميـــع صوره سواء كان خفياً كما هو الحال في اليمن ام ظاهراً كما هو الحـــال في افريقيا الشمالية .

ولا يتطلب هذان المبدآن الاساسيان شكلاً سياسيا معينا بل يعينان مضمون هذه السياسة اذيمكن لهذا الشكل ان يتخذ طابع الجمهورية اوالملكيةاو الاوتوقراطية .

ومـــا الانتخابات التي تكون اليوم العقدة الرئيسية في حـــياة العالم الاسلامي السياسية سوى مجرد شكل برلماني .

والمضمون الايجابي هو المعيار الوحيد الذي يمكننا من معرفة ما اذا كانت السياسة التي نتبعها تقوم على علم الاجتماع التطبيقي ام انها عبارة عن سياسة وهمية . ولا نشعر ـ لسوءالحظ ـ اذا ما تتبعنا تطور السياسة الاسلامية العامة حتى قضية فلسطين بان هذه السياسة تقوم على مبادىء معينة واصول واضحة . كما انها لا تهدف لتحقيق غايات حقيقية واقعية تشرف عليها عقيدة تهدينا الى الطرق التي يجب اتباعها للوصول الى هذه الغايات بصورة منظمة . كما اننا نجد ان هذه السياسة لا تعتمد على المبدأ القديم الذي قال به المصلح الاول جمال الدين الافغاني الا وهو « الاخوة الاسلامية » كأساس ضروري لكل سياسة في البلاد الاسلامية .

ولا تكف النزعات القومية عن محاربة هذا المبدأ . وما هذه النزعات القومية سوى نزعات الفئات المختاره التي لا تعبأ بما يجب ان يقوم بينها من علاقات بل همها الوحيد هو المحافظة على مصالحها الخاصة .

ولقد اخذ العالم الاسلامي يدرك ان «الاتحاد» مشكلة رئيسية وان اي مركب لا يمكن ان يتكون من اية عناصر وجسب اية سياسة من السياسات المتبعة في الوقت الحاضر .

وانه لمن الصعب استعمال لفظ « السياسة » للدلالة على المحاولات الاستبدادية التي تقوم بها مختلف هذه الفئات المختارة بل لعل لفظ بوليتيك (boulitipue) الذي يستعمله الشعب الجزائري للدلالة على الاوهام والخرافات افضل منه .

والفرق بين هذين اللفظين هو الفرق بين الصدفة والعاطفة وبين التوجيه الدقيق الذي نستخلصه من التجربة الانسانية عبر التاريخ . واما البوليتيك فهي الخلط بين الممكن وغير الممكن وترك ما يمكن الوصول اليه بالطرق المباشرة ومحاولة ما لا يمكن الوصول اليه بالطرق الخيالية .

ولقد اتخذت السياسة في افريقية الشمالية هذا الطابع الناقص لانها تقوم على ثغرات عهد ما بعد الموحدين وعدم فعاليته . ولهذا تجد فيها التناقض بين « الشيء الغير الممكن » وبين «الشيء السهل »

تخفي هذه السياسة الاسطورية عن الضمير الاسلامي اصول المشكلة الحقه . فحيثما يجب العمل نكتفي بالكلام ، وحيثما يجب فضح قابليتنا للاستعمار نقوم بفضح الاستعمار دون ان نأتي اي عمل لتغيير حالة الشعب تغييراً حقيقياً .

ينتظر جميع الزعماء المسلمين سنوح الفرصه بينما يقضون ايامهم في الاحتجاج ضداسطورة الامم المتحدة او «الضمير العالمي» . وقد اصبحت

نظرية سنوح الفرصة كلمة فارغة على لسان انصار هذا الموقف . وهي ليست سوى امل مُخلَّب لا يصمد امام الحوادث التي تجري دائماً على غير مانهوى .

ولا يمكننا معرفة اتجاه الظروف السياسية ما لم ندرك معنى الحقيقة عارية من كل نزعة عاطفية . بيد ان احكامنا ـ ويا للاسف ـ ليست في اكثر الاحيان سوى معتقدات عاطفية . نحن لا نحكم بل انما نحن نكره او نحب . ولا يخلو اكبر مفكرينا من هذا العيب .

ولقد اسف المرحوم الشيخ ابن بادس في مقال ظهر في عام ١٩٣٤ ايام النزاع بين آل سعود والامام يحيى على « اراقة دماء المسلمين » . وكان لومه موجها لكل من الفريقين المتنازعين بدون اي تمييز . فكأن ابن بادس لم يدرك حقيقية هذا الخلاف الذي نشأ بين النهضة الروحية والمادية الاسلامية على يد الفكر الوهابي وبين قوى الانحطاط التي كان يمثلها الامام يحيى بمساعدة الدول الاستعماريه .

وقد اهمل هذا الحكم الناحية المهمة من المأساة الا وهي سرعة المناورة التي قام بها الجيش السعودي الفتي لاحباط المشروع الاستعماري في اربع وعشرين ساعة بالاستيلاء على الحديدة . كما انه لم يهتم بموقف موسوليني الذي كان يسعده احتلال اليمن « لحماية الاسلام » .

ولا نزال نجد حتى اليوم في صحافة الدول الاسلامية صدى هذه النفسية العاطفية. فإذا بنا نرى الصحافة العربية تكتفي اثر الانقلابات الثلاثة (١)

---

(١) الانقلابات الثلاثة التي قام بها الزعيم والحناوي والشيشكلي عام ١٩٤٩

التي حدثت في سورية بالاسف على حالة الاضطراب التي تخيم على الجمهورية السورية الفتية . ولم يحاول اي مراسل صحافي سبر غور هذه الحوادث العميق . ولو فعل لتبين لهان وزارة الخارجية الانجليزية لم تعد تدير سياسة العالم العربي كما تحب وتهوى . فلقد وصل الزعيم الى الحكم بدون علمها كما ان محميها الحناوي قد طرد بدون ان يستطيع المقاومة . كما ان الانقلاب الذي قام به الشيشكلي يدل بدوره على أن العالم العربي يعرف منذ الآن كيف يدير حركة سياسية بصورة منظمة وكيف يقهر بقلم المخابرات السرية البريطانية بالرغم من تنظيمه الدقيق .

تلك هي الناحية الاساسية من المشكلة وليست هي في حالة الاضطراب التي تشيع في دولة لم تكد بعد تولد .

كما ان البولوتيك (السياسة) يمكن ان توضح لنا حرب فلسطين الفاشلة حيث برهن الزعماء على عدم كفاءتهم فيما يتعلق باقل التفاصيل الاولية . ويجب ان نضع هنا ايضاً الدبلوماسية السعودية جانباً ، تلك الدبلوماسية التي كانت لوحدها الدبلوماسية الواعية

إذ يبدو ان ابن سعود هو السياسي العربي الوحيد الذي ادرك من فوره خفايا القضية فامتنع عن ارسال جيشه إلى فلسطين .

فدلل بذلك على انه لم ينخدع باخلاء حيفا المفاجيء على يد الانجليز الذين كانوا على بينة مما يفعلون ، فتركوا المدينة فجأة دون تسليمها لسلطات منظمة تقوم بحماية المدنيين في فلسطين . ولقد قال برنارشو قبل ايام من وقوع الحادث ... بانه يجب « ترك العرب واليهود يحلون الخلاف بينهم بواسطة السلاح » . ولا شك ان هذا رأي رجل

مطلع قد فكر قبل اصدار مثل هذا الرأي . ولقد شل هذا الاخلاء جميع اعضاء الجامعة العربية ما عدا ابن سعود . ولم يحتجوا على اخلاء حيفا في ظروف لا يستفيد منها سوى الاسرائيليين لوجود قواتهم في المدينة المتنازع عليها . كما انهم لم يستبقوا الحوادث بايجاد وضع قانوني وذلك باعلان الجمهورية الفلسطينية . ويدل عدم قيامهم بذلك على عجز سياسي تام . وإذا بزعماء جامعة الدول العربية يسيرون وراء « الشيء السهل » فيعتمدون على هيئة الامم المتحدة .

كما انهم لم يقدروا تفوق الاسرائيلين السياسي والاقتصادي والفني والعددي حق قدره . ولم يكونوا ليدركوا هذا التفوق بالرغم من انه كان يكفيهم العد على الاصابع ليتبين لهم ذلك. فلقد كان من البديهي ان الصهيونيين يملكون فصيلة مجندة من ثلاثمئة الف محارب بينما الدول العربية - ولا اقول الشعوب الاسلامية التي استطاعت الدبلوماسية الاجنبية عزلها لحسن الحظ - لا تكاد تستطيع تجنيد مئتي الف رجل .

اما التفوق الدبلوماسي والاقتصادي والفني عند الاسرائيليين فلم يكن من الممكن مناقشة ذلك نظراً لوضع العالم الاسلامي في الوقت الحاضر. فكان من السهل التنبؤ بانتصار الاسرائيليين لكل انسان ما عدا ضحايا البولوتيكا العربية وذلك لان هذه البولوتيكا تكرر اخطاءها لانها لا تقوم على اي علم او اية تجربة بل تقوم على الجهل والهذر .

ولقد استمر الايمان بالمنظمات العالمية بعد ان تبين ان المرحومة جمعية

الامم لم تقم بتطبيق مبادىء السياسي الاميركي الاربعة عشر بل اخذت بتوزيع الانتدابات والحمايات الجديدة . ولم يستنتج مـــن ذلك الساسة العرب اية نتيجة عملية فكان لا بد من تكرار الأمر مع ميثاق الاطلنطي وميثاق الامم المتحدة . لم يكف رجال السياسة الاسلامية حتى دورة قصر شايو عن القاء الخطب في مدح المنظمة الجديدة العالميـــة . وانهمر سيل الخرافة من جديد مرة اخرى يخدر الضمير الاسلامي بأبخرته المسكرة .

ولقد كان من السهل الانخداع وذلك لان الظواهر كانت تساعدعلى هذا الانخداع . فاذا بالبا كستان تفوز باستقلالها وإذا باندونيسيا تحظى بحريتها تقريباً واذا بأبخرة الاستقلال « السهل » الذي لا يتطلب كبـــير جهد تأخذ بالالباب . وهذا ضرب من التخدير الكلي حال دون ادراك ان هذه البلاد التي « تحررت » لم تصل الى ذلك عن طريق مبدأ يحررها بل لانها كانت تقوم على تخوم الشيوعية ، ويكفي النظر الى خريطة مـــا لادراك ذلك .

ونستطيع ان نتصور ضعف مثل هذا الاستقلال طالما ان البلاد المشار اليها لا تزال قابلة للاستعمار ، وطالما انها لم تدرك وضعها على حقيقته . ولربما تغيرت الستراتيجية بين عشية وضحاها في العالم . رأينا ذلك في اندونيسيا حين غيرت الملكة ولهلمينا موقفها عـــدت مرات حسب تغير الظروف . فاذا كان لا بد من قهر اليابان منحت الملكة الاستقلال . حتى اذا ما قهرت اليابان ارسلت الملكة فرقة لانتشال الزعماء الوطنيين مـــن مضاجعهم والقضاء على جمهوريتهم العابرة .

فاذا ماوصل ماوتسي تونج الى كنتون غيرت الملكة نفسها من جديد سياستها في جاوه(١) .

اما الوضع في الباكستان فيبدو لنا مضطربا اذا نظرنا اليه عن قرب ويظهر ان تشرشل اراد الوصول الى ثلاثة اهداف في الهند وقد وصل اليها فعلا .

اراد قبل كل شيء حرمان روسيا من سلاح قوي لدعايتها .

فما عسى يكون وضع الهند المستعمرة بجانب الصين الشيوعية على حدودها في الحرب العالمية الثالثة ؟

وهكذا نجح « الثعلب الكهل » باقامة منطقة امان في شبه الجزيرة الهندية ضد الشيوعية. بيد انه خلق من ناحية اخرى العداوة بين الباكستان والهند ، تلك العداوة التي تفصل الاسلام عن الشعب الهندي من ناحية وتحول دون تكوين اتحاد هندي قوي من ناحية ثانية .

ولقد جهد في توسيع شقة الخلاف بين المسلمين والهنود وذلك للتفريق بينهما فكان ان سالت دماء ملايين الضحايا التي سفكت على مذبح هذا التحرير الغريب. واذا بهذه الدماء تفرق بين الهنود والمسلمين اكثر مما تفرق الحواجز والحدود ، واذا بباتل يثور كل ما جاء ذكر الباكستان حيث جهدت الجامعة الاسلامية لخلق حالة من الفوضى والاضطراب. يضاف الى ذلك مشكلة كشمير المزعجة .

---

(١) يؤكد نظريتي هذه بحث عن اندونيسا نشرته جريدة باريسية بعد مضي عدة اشهر على كتابة هذه السطور . وهناك ما يقوله مري برو مبرجيه عن الوضع الجديد في اندونيسيا : «ومع ذلك يبتسم الهولنديون الموجودون هذا المساء هنا آسفين فقد اضاعوا كل شيء في الظاهر ومع ذلك يمكنهم استعادة كل شيء من جديد . . .»

وليست هذه المشكلة العثرة الوحيدة لعقد الصلح بين الاخوين المتعاديين فهل سيدرك هذا الاخوان مغزى التصريح الذي ادلى بـه زعيم صهيوني منذ عام فقال « يجب ان تقوم بين دولة اسرائيل والدولة الهندية علاقات للحد من قوة الاسلام »

ويعني ذلك انه يجب ان تندلع نار الحرب بين الدولتين التوأمـين اللتين تتقاسمان اليوم الهند. غير ان هناك شبحاً ضخماً يظلل هذه الصورة وذلك لأن اولئك الذين يودون تحريض باتل ضد الباكستان او تحريض الباكستان ضد الاتحاد والهند. يتراءى لهم شبح ماوتسي تونج يخيم على جنوبي آسيا .

وكذلك فان فوز سوريا بحريتها لا يعود لمبدأ تحريري بل للظروف التي حدثت بعد الحرب الاخيرة وايجاد دولة اسرائيل فيما بعد . ولاشك ان الشعب السوري قد استفاد من كل ذلك ولهـذا عبر الشيشكلي عـن اعتراف بلاده بالجميل نحو محرريها فقام باتخـاذ بعض الاجراءات في الميدان السياسي ضد الاخوان المسلمين .

يبدو اذن ان شعوب افريقية الشمالية لا تستطيع التحرر من الاستعمار الا بفضل الظروف العالمية المشابهة(١)

غير ان هذه الشعوب لن تتوصل الى تحرير حق الا اذ هيأت بنفسها اسباب تحريرها تهيئة علمية .

---

(١) دلت الحرب الاخيرة على ان الاستعمار الفرنسي لا يحرر الشعوب المستعمرة بل يفقد مستعمراته بالرغم عنه . ذلك هو مصيره إذا ما فكرنا بما حدث في كندا والهند سابقاً . اما في ايامنا هذه فان هو شيء منه يقوم بتحرير الكمبودج واللاووس .

ولهذ فإن الراي الذي يدل عليه مثل هـذا العنوان الذى ننقله عـن الصحافة الجزائرية حـين تقول : « ان تحرير شعوب آسية المستعمرة سيتبعه حتما تحرير شعوب افريقية المستعمرة » انمـا هو رأي ساذج : لان مثل هذا القول يوحي بان هناك عملية تحرير آلية لا توجـد الا في ذهن كاتب هذا المقال . فتحرير بلد ما لا يحتم تحرير بلد آخر . وهناك موقفان ممكنان : فاما ان ننتظر ان تتحققق الظروف من نفسها واما ان نقوم بتهيئتها بصورة ايجابية .

المشكلة الرئيسية اذن هي ما يلي : لكي نتحرر مـن الاستعمار يجب ان نتحرر من قابليتنا للاستعمار كما يجب ان نتحرر من الخرافات .

ويبدو اننا في الوقت الحاضر لم نتخلص من الميل الى «الشيء السهل» اتصفح وانا اكتب هذه السطور آخر ما كتب عن سياسة افريقية الشمالية: نداء الى الامم المتحدة ومهاجمة للاستعمار(١) .

ونحن بحاجة هنا الى توجيه جديد ووسائل محسوسة وتحـديد للجهد اليومي الضروري لتغيير اسباب القابلية للاستعمار والقضاء على الاستعمار نفسه

ويجب ان نلاحظ مع ذلك ان قضية فلسطين قد ايقظت العالم الاسلامي من سباته العميق، ولربما كانت الحلقة التاريخية التي اخذ العالم الاسلامي بعدها يتجه اتجاها ايجابياً .

---

(١) راجع بهذا الصدد عدد ٤ شباط سنه ١٩٥٥ من جريدة الجمهوريه الجزائريه

العوامل الخارجية

« ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها »
« وجعلوا أعزة اهلها أذلة »
(قرآن ٢٧، ٣٤)

درسنا حتى الآن الناحية الداخلية من فوضى العالم الاسلامي الا وهي قابليته للاستعمار . الا ان هناك ناحية اخرى كما قلنا ألا وهي الناحية الخارجية التي تقوم على استعمار العالم الاسلامي .

ولا يظهر الاستعمار هنا فقط في صورة خرافة تعوق العالم الاسلامي وتشله عن العمل بل في صورة محسوسة هي عبارة عن الافعال التي تسعى للقضاء على قيم الفرد وامكانيته على التطور . نرى ذلك بوضوح حيثما كان الاستعمار مستبداً كما كان الحال في اندونيسيا وطرابلس الغرب وكما هو الحال الآن في افريقية الشمالية . ولا تنفصل هاتان الناحيتان كل منهما عن الاخرى بل يؤثر كل منهما في الاخرى . واذا كنا هنا نفصل بينهما فما ذلك الا لنقدر اهمية كل منهما النسبية .

ولا بد من تحديد ما نعني « بالاستعمار المستبد » . هناك صورتان للاستعمار : استعمار لا يتدخل تدخلا مباشراً في حياة المستعمَر بل يحتفظ المستعمَر بحريته في العمل ، واستعمار « مستبد » يتدخل تدخلا مباشراً حتى في تفاصيل حياة المستعمَر الدينية : ويمتد هذا التدخل الى كل شيء

فتخصص لاطفال المستعمَر «مدارس محلية» تطبع ذهن الطفل بطابعها المحلي . واذا كان المستعمَر صاحب مقهى كان ذلك لسبب اجتماعي يطبع تجارته بطابع محلي أيضاً .

ولهذا الاستبداد مجامعه كمدارس العلوم الاستعمارية، كما ان له برنامجه العام وهو عبارة عن الميثاق الاستعماري الذي يتغير حسب تغير الحاجات وتطور الحوادث ليتلاءم دائما والاوضاع الجديدة . كما تعقد المؤتمرات بانتظام تحت أسماء مستعارة تخفي اهدافها الحقيقية كمؤتمر الفولتا ومؤتمر اصدقاء نستراداموس . . الخ . . تبحث السياسة الاستعمارية وبرنامجها الفني للاستعمار الاخلاقي والمادي . وهكذا تُوجه حياة المستعمَر في كل ناحية توجيها خفياً لا يهمل أية مناسبة أو أي تفصيل .

يبدو الاستعمار في هـذه الصورة كعنصر اساسي في فوضى العـالم الاسلامي بسبب الاتصال المباشر بين المحكومين والحكام فقط او بين المستعمِرين والمستعمَرين بل يتـدخل أيضاً بصورة خفية في علاقات المسلمين بعضهم بالبعض الآخر . ويظهر هذا التدخل في أقل تفاصيل الحياة اليومية .

يستطيع المتجول في شوارع الجزائر ان يشاهد على الاقل منظرين أو ثلاثة مناظر من هذا القبيل .

فهو يرى مثلا الاطفال الصغار يبيعون البرتقـال بينما تقوم الشرطة بمطاردتهم فيفر احدهم وقد خلف وراءه بضـاعته ، بينما راح الشرطي يجد في مطاردته وكأنه يقوم بمهمة خطيرة .

وعلى بعد خطوات يرى المتجول أطفالا آخرين وقد راحت انظارهم ترقب مرور المحسن « العبيط » بينما اخذوا بتمثيل « مشهد الفاقة » التي

تمزق القلب بترتيل بعض الاناشيد الدينية المثيرة . غير أن الشرطي الذي لا يكف عن رؤية هذا المشهد المحزن لا ينبس ببنت شفة .

ثم يرى المتجول أيضاً اناساً قد لفوا العمامة بجـــلال حول رؤوسهم وراحوا يدعون السائح الاجنبي او المرأة العابرة اليهم . وهنا ايضاً لاينبس الشرطي ببنت شفة .

لهذه المناظر اليومية مغزاها فهـي تدلنا على فلســفة الاستعمار اجمالا تلك الفلسفة التي يمكن أن نعبر عنها بالآية التي وضعنـــاها في صدر هذا الفصل الا وهي : « ان الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة » .

ويتبع الاستعمار طريقة علمية تقوم على طبع البلاد المستعمرة بطـــابع محلي خادع . ولهذا يقضي على كل عثرة تعترض طريقه . فهو يقضي على الفئة المختارة التي تتجسد فيهـــا فضائل الشعب المستعمَر . ولـــكي يحول دون اصلاح هذه الفئة المختارة الحقة ، فتعود الى الظهور مرة ثانية، يعمد الى انشاء نظام للافساد والتخريب يحـــارب كل فضيلة أو شرف أو حياء .

وهكذا يجد الشعب المستعمَر نفسه ضمن اطـــار مصطنع يعمل كل جزء فيه على افساد الفرد .

هذا التوجيه الخاطىء هو في الحقيقة تدمير يتغير حسب تغير الاوضاع الجديدة ويقف في وجه كل مبادرة جديدة فيعمد الى القضاء عليهـــا . ولهذا كان لا بد ان يهتم المستعمر بالنضة اهتماما كبيراً . ونرى إذلك فيما ادخله الاستعمار في المجتمع الاسلامي الجزائري من عنـــاصر التخريب وعوامل الفوضى . ولقد أوحت اليه السلطة [illegible] كما اوصى اليه

طموحه الذي لا يُحد فكرة مجنونة محزنة لايقـــاف سير المدنية في البلاد المستعمرة .

فألب على حركة التجديد جماعة المرابطـة والباشوات والعلماء وشبه الجامعيين الذين قاموا بتمثيل دور « الدفاع عن التقاليد الاسلامية »(١) وإذا بكلمة «التقاليد» هذه تصبح شعار السياسة الاستعمارية اجمالا .

هذا من جهة ومن جهة ثانيـــة فإنا نرى محاولة الاصلاح تعترضها نزعة صاخبة لا تكف عن بعث التقاليد البالية والخرافات الماضية . ولما كان الاستعمار لا يني عن السعي لاعادة بناء صرح طريقـــة المرابطين الصوفية المندثرة فقد انتشر في بعض العواصم عدد من المومياتوالتماثيل التي ترجع للقرون الوسطى التي تلت عصر الموحدين . وذلك لتقوم بدورها في تمثيلية السياسة المحلية ، سياسة الاسلام التقليدي . ولهـــذا لا يكفي الاستعمار ترديد قول «Josué» في تاريخ الشعوب المستعمَرة: «قفي أيتها الشمس عن الدوران » .

فكان هذا القول الذي لم يخطر ببال جنكيز خان أو أتيـــلا الصيغة السياسية في الوقت الحاضر لاحط صور الاستبداد الانســـاني في القرن العشرين ، عصر المدنية الاوروبية المسيحية .

يظهر ذلك في جميع افعال المستعمرين لا سيما بعد زوال التوازن الذي تلا عصر الموحدين بتأثير جمال الدين الافغاني .

ولما كان الاستعمار تقوده فكرة لعينة تقوم على ايقاف سير الشعوب

---

(١) من ضمن هذه التمثيليه موقف بعض المرابطين الجزائريين الذين يدعون الى العودة الى الاسلام بينما هم يحتسون قدحاً من المسكر وينتقلون في السيارات الفخمه التي تمدهم بها دائرة الشؤون الاسلامية.

نحو النور فانه لم يتردد في استخدام اقدس الامور لانقاذ مصالحه المادية ـ فانتشرت في مصر، في مطلع هذا القرن ، بعض طبعات القرآن المنحولة وذلك للقضاء على أساس الفكر الاسلامي الناهض . ولقد ادى ذلك بالمنتحلين الى سخرية المسلمين بهم حين اكتشف أمرهم .

ولقد سمعت في باريس استاذا كبيراً يقول : « هل المسلمون بحاجة للمحافظة على القرآن بعد ان قال الله تعالى : «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ومهما يكن الامر فقد قامت سياسة الاستعمار على مثل هذه الاساليب في التحريف والتشويه والوضع . ولهذا كان الاستعمار مسؤولا الى حد كبير عن فوضى العالم الاسلامي .

ولا نستطيع في هذا الصدد اهمال ذكر بعض التفاصيل واختصار بعض التعابير المذهبية وذلك لان المذهب لا ينفصل عن التفاصيل التي تمدنا بدليل مباشر على مسؤولية الاستعمار .

غير اننا لا نريد هنا ذكر جميع التفاصيل التي تتسرب بدون انقطاع الى حياة المسلمين كما تتسرب حبات الرمل في قطع المحرك وذلك لأن عمل الاستعمار انما هو نسف ضخم للتاريخ .

هناك مع ذلك بعض التفاصيل التي تستحق الذكر خاصة .

فلنذكر منها على سبيل المثال هذه الحادثة التي نشاهدها في حياة الجزائريين . فهي تدلنا على التقاء هذه التقاليد البالية التي يريد الاستعمار بثها بالنزعة الحديثة الحية التي تتمثل في ارادة الشعب . ولقد جرت هذه الحادثة في لاغوت حيث زال مذهب المرابطية الصوفي بفضل التطور

الطبيعي . وكم كانت دهشة السكان عظيمة حين سمعوا ذات صباح تلك الاصوات التي نسوها منذ عهد بعيد .

ثم إذا بهم يرون جماعة من المرابطين تتجول في شوارع المدينة . ولقد اساءت هذه العودة الى الحالة القديمة ، التي عدا عليها الزمن بعد عهد الموحدين ، الى الكثيرين .

فخطرت عندئذ لزعماء الكشافة المحلية فكرة تنظيم عرض من الكشافة الشباب في الحال لمصاحبة فريق المرابطين في تطوافهم في شوارع المدينة. فاذا بالضحك والسخرية ينهالان عليهم فيتفرقون لتوهم بعد ان ادركوا ان ظلام الليل قد ولى وان ساعة الاشباح قد أفلت .

وهكذا يحق لنا ان نعجب من اختيار الادارة المستعمرات لبعض الشخصيات المصابة في جسمها واخلاقها لتمثيل الشعوب الاسلامية في المجالس (١) .

وهي ولا شك حيلة حيكت من خيوط تضليل صانعيها الذين لا يكفون عن محاولتهم لتخدير الضمير الاسلامي . ولما كان الاستعمار ساذجا عنيدا فانه لا ييأس امام اي فشل يحل به ولهذا يجند في كل يوم صنائعه الذين يمنحهم كميات ضخمة من المال بدلا من ان يخصص هذه الكميات من المال لمشاريع اجدى وانفع . يمكننا ادراك الطابع المحلي في بعض المنشآت العمرانية القليلة التي تبنى من اجل الشعب ، ذلك الطابع الذي يلح الاستعمار على وسم الحياة الاسلامية به.

ونرى ذلك في هذا الضرب من المدن الذي يسمى Silos Villes التي

---

(١) تسيطر هذه الروح اليوم على الحياة الفكرية المحلية التي تديرها لجان تحكيم ادبية استعمارية تكافيء القصة التي بلغت فيها البقرية المحلية الحد الاقصى من الانحطاط .

تكون تقدماً محسوساً على المدن المسماة Bidon Villes حيث يزدحم سكان المدن الكبرى الفقراء . غير ان اسلوب المدن الاولى ـ كما نرى ذلك في ضواحي الجزائر ـ يقوم على المحافظة على الطـابع « المحلي » بتحديب سطوح البيوت على شكل حدبة الحمار .

وهذه طريقة من بين الطرق الكثيرة لنكران الذوق الاسلامي والقضاء على الاسلوب العربي الجميل الذي خلف آثاره الخالدة في اسـبانيا . حتى انه يجب على المقهى الوضيع ان يحمل اسم « مقهى اسلامي بادارة الارمل السيدة فلانة » .

ولقد اخذت الادارة على نفسها في تونس اجبار اصحاب المقاهي على تزويد مدخني الحشيش بهذه المادة وذلك لتنسيهم ولا شك ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .

واذا كان العالم لم يفقد بعد كل اخـلاقه فما ذلك إلا لأن النفس الانسانية خالدة لا يمكن القضاء عليها ولهذا استحق الاستعمار شكر رجال الدين في جميع النحل لانه برهن على خلود النفس .

وليس هناك من عصر استطاع ان يحيي في الانسان غرائزه الحيوانية اكثر من عصرنا الذي حفل بمختلف انواع الخمائر التي تمدنا بها مختبرات مجهزة بجميع الوسائل المادية والنفسية ، من قوانين ومصارف وادارات وجرائد وسجون ومدارس « محلية » .

ولقد اتاحت هذه المختبرات لزبد المجتمع الاسـلامي أن يطفو على السطح اليوم بينما ترقد الفئة المختارة في القاع . وما الحياة الفكرية في أي بلد مستعمَر سوى تخمير بسيط لتـكرير بعض الافكار الموجهـة للبولوتيكا (السياسة) .

حتى لأن الطفل الذي يجتاز امتحان الشهادة الابتدائية يصبح فريسة مؤامرة يدبرها الممتحنون « المحترمون » الذين يدققون في وضع العلامات لكي لا ينال « طفل محلي صغير » درجة مشرفة اعلى من درجة زملائه الاوروبيين .

وتسيطر هذه النظرة أيضاً على الحياة الفكرية ولهذا قال الفريق فرنشيه دسبرج Franchet d'Esperg أثناء احد الاستعراضات : « ليست الرتبة حقاً من حقوق النقيب (Capitaine) المحلي بل هي هبة » . وكذلك شأن الطالب المسلم الصغير أو المتعلم المسلم ، فليست الشهادة التي يحملها او الوظيفة التي يشغلها حقاً من حقوقه بل هي هبة يوهبها . ولهذا كانت الفئة المختارة المسلمة التي تولدها هذه الهبات ، تدعو الى الاسف الشديد .

حتى إذا ما نبغ ذهن ممتاز حاول المستعمر القضاء عليه بجميع الوسائل فاذا كان صلباً قاسياً قضى على عائلته وهذا مما يشله عن كل تقدم .

وهكذا تتوقف حياة الشعب الفكرية ويتوقف بذلك تقدمه .

وتستخدم نفس الطريقة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي الا وهي هدم النظام الكائن في البلاد المستعمَرة ومنع هذه البلاد بجميع الوسائل عن اعادة تنظيمها .

ولهذا رأيت انجلترا تسعى منذ احتلالها لمصر الى القضاء على تفكير محمد علي وعلى اعمال الخديوي اسماعيل الذي اخذ على عاتقه انشاء صناعة وطنية . لن نتحدث اذن عن الـ ٥٠ ٪ من أسهم قناة السويس

التي انتزعها الانجليز بالتهديد من الحكومة المصرية .

وكذلك قام الاستعمار بنسف عدد من المنظمات اثر احتلاله للجزائر، فقد كان في الجزائر مدرسة تقوم على تربية اليتيمات . وقد استمرت هذه المدرسة بعض الوقت بعد عام ١٨٣٠ تحت اشراف محسن فرنسي ، بيد أنها لم تعتم ان زالت من الوجود بدورها . ولم يبق منها سوى الذكرى في بعض الارشيفات وفي نفوس بعض الـكهول من الجزائريين . وقد نشأ في قسطنطين منظمة عمالية تحت اسم رمزي الا وهو « رابطة صلاح بك » . وكان صلاح بك هـذا يشجع في زمانه التعـليم والعمل فاذا بالادارة الاستعمارية تغلق أبواب هـذه الرابطة . ولهذا نرى فن صناعة التحف الدقيقة قل من يمثله في العالم الاسلامي أمثال عمر راسم في الجزائر حتى إذا ما توفى هؤلاء الفنـانون توفى معهم فنهم وذلك لأن الادارة الاستـعمارية بدلا من أن تنهض بهـذا الفن قد بذلت جهـدها للقضاء عليه.

وهكذا نرى في كـل ناحيـة من نواحي الحياة الاجتماعة وجهي الفوضى معاً الا وهي القابلية للاستعمار والاستعمار نفسه .

واذا كانت الحياة الفكرية لم تخل من مراقبة الاستعمار فما ذلك الا لعلم هذا الاستعمار بأن الدين هو الوسيلة الوحيده الاخيرة لاعادة الصحة الاخلاقية لشعب فقد في ازمته التاريخية كـل باعث اخلاقي .

واذا كان لا يزال حتى الآن شيء ينبض في الروح الاسلامية تستطيع بواسطته ان تصلح نفسها فما ذلك الا الاسلام .

ولهذا يقاوم الاستعمار في كل مكان هذه القوة التي تعمل على بعث

العالم الاسلامي : فاصبح الاسلام بذلك موضع التقييد والمراقبة كما اضحى فتح ناد للميسر اسهل بكثير من فتح مدرسه قرآنيه .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الادارة الاستعماريه هي التي تعين رجال الدين أمثال المفتي والامام لا مرضاة للطائفة الاسلامية بل حسب هوى المستعمرين .

وبهذا تملك افضل وسائل الافساد . فلا يختار الشيخ الذي يؤم الصلاة لضميره الاخلاقي أو لعلمه الديني بل لما يؤديه من نفع للادارة كمنفذ للصلوات . وليست حالة العبادة هذه اقل ما يقلق ضمير المؤمن بأحاطته بجميع اسباب الفسادفيجدنفسه أمام إمام خائن أو مفتٍ فاسد او قاضٍ واشٍ .

وغرض الادارة الاستعمارية هو جعل الاســـلام مظهراً غريباً من مظاهر الحياة المحليه . ولهذا تقيم الأدارة العثرات والعراقيل في وجه النهضة الاسلامية .

ونستطيع هنا المقابلة بطريقة مباشرة بين القابلية للاستعمار والاستعمار نفسه كعاملين من عوامل الشلل في العالم الاسلامي . فندرك عندئذ ان المستعمِر يستطيع التحرر من قابليته للاستعمار بقدر اعتماده على ذكائه وجهده للتغلب عـــلى الصعوبات وتخطي العثرات واجتياز العراقيل . فنراه عندئذ يبني بنفسه ــ كما حدث في الجزائر ــ الجوامع الجديدة التي يؤمها بحرية للعبادة . كما يبني المدارس الجديدة التي يتابع فيها أولاده بحرية دراستهم وذلك لأن المسلم ، حتى في عصر ما بعد الموحدين ، لم يفقد ايمانه .

تدلنا هذه البوادر على ان المشكلة ليست في النقـــاش حول حرية العبادة ونشر التعليم بقدر ما هي في القيام بالاعمـــال الاجتماعية واداء الواجبات الضرورية . ولا شك انه من المهم الفوز بالحقوق التي نطالب بها . بيد اننا لسنا هنـــا أمام قلب للقيم بتقديم الحقوق على الواجبات لأن ذلك يفضي الى ازدياد الخـــلط والاضطراب بازدياد أخطـــاء السياسة .

لا يزال الاستعمار يدعونا إلى النوم بيد أن ســـاعة الاستســـلام للأشباح قد ولت في العالم الاســـلامي الى غير رجعة .

- ٤ -

فوضى العالم الغربي

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (قرآن ٨ ، ٣٠)

لا تعدو ان تكون اشارة اقبال إلى « سرعة اتجاه العالم الاسلامي الفكري نحو الغرب » تلميحاً لمظهر خاص من واقع ادركه ابن خلدون حين قال مؤرخ القرون الوسطى الكبير : « ان الشعب المغلوب على امره يستعير عن الشعب المنتصر افكاره وطرقه » . ولقد رأينا اقبال نفسه يحس بالقلق قبل اتخاذ موقف معين فيما يتعلق مثلاً بمشكلة المرأة فإذا به يتردد امام العادة الشرقية التي تفصل المرأة عن الواقع بواسطة حجاب تسدله على وجهها وبين النظرية الغربية في تحرير المرأه تحريراً كلياً غير مشروط يصلها مباشره بالواقع . وينم هذا القلق عن القلق العام الذي يعتري الضمير الاسلامي الحديث في تردده أمام حلين لا يرضيه اي واحد منهما . ويبدو ان هناك من يبحث عن حلٍ ثالث يتفق وروح الاسلام وضرورات العصر الحاضر ولهذا لا يخلو اي بحث من التردد والقلق .

ذلك هو سبب اضطراب الاذهان النيرة ، ذلك الاضطراب الذي ينتج عنه توقف في تطور الافكار وذلك لان المجتمع الاسلامي لايستطيع

التقهقر الى عصر ما بعد الموحودين كما انه لا يستطيع الاندفاع الى الامام دون ان يعلم الى اين يسير في سعيه نحو الغرب .

وهذا مما جعلنا نشعر بان العالم الاسلامي يجتاز مرحلة توقف في تاريخه. وتقع هـذه المرحـلة بين فوضى عصر ما بعد الموحدين وبـين النظام الغربي . غير ان هذا النظام لم يعد له هذا التأثير الساحر والاغراء القوي الذي لا يقاوم كما كان الحال على عهد مصطفى كمال واقبال .

ليس العالم الغربي اليوم سوى عالم تشيع فيـه فوضى اخرى ولا يجد فيه الذهن الاسلامي ، في بحثه عن « نظام » ياخذ به ، المثال الذي يحتذيه والمنبع الذي ينهل منه في سيره نحو التقدم . فيضطر الى العودة الى قيمه الخاصة . ولهذا يتبين لنا من مطالعات الشبيبة الاسلامية ومناقشاتها ما يدل على اهتمام جديد بالاسلام . وليس هذا الاهتمام عوداً الى الوراء ، بل يبدو ان الاسلام يتفتح بوعي على العالم الحديث الذي يريد الاعتياد عليـه .

وهو يعلم ان الغرب لا يمكنه ان يمده بجميع الحلول كما خُيل اليه في عهد مصطفى كمال بل انما يمكنه ان يمـده بنتائج تجربة ضخمة لا تزال تحتفظ ، بالرغم من اخطائها وبسبب هذه الاخطاء ، بقيمة لا تقـدر . ولهـذه التجربة ـ التي هي عبارة عن درس يلقننا اياه التاريـخ لفهم مصير الشعوب والمدنيات ـ اهميتها الخاصة في بناء الفكر الاسلامي . وذلك لانها اعظم نجاح حققته العبقرية الانسانية . كما انها ادت الى اخطر فشل باءت به هذه العبقرية . وادراك الحوادث من هاتين الناحيتين ضروري للعالم الاسلامي في وضعه الحاضر ، هذا العالم الذي اخذ منذ قضية فلسطين يحاول فهم مشاكله على حقيقتها عن طريق تقدير

اكثر موضوعية لاصول النهضة واسباب الفوضى التي يتخبط فيها .

يظهر ان العالم الاسلامي يريد الفراغ نهائياً من حالة تفقد فيها كل فكرة مظهرها الخاص . ولهذا نرى ظهور نزعة الى الفهم اكثر منها الى ترديد ما يقال والى محاولة فهم مغزى التطور التاريخي الاوروبي اكثر منها الى الاكتفاء بنسخ ما يصدر عن اوروبا .

حتى إذا ما ادرك طابع الظواهر الاوروبية النسبي سهُل عليه فهم ما فيها من نقص وعظمة حقيقية . فتصبح بذلك العلاقات مع العالم الغربي كما يصبح التبادل معه ، اكثر فائدة ، هذا العالم للذي سوف تجد فيه الفئة المختاره المسلمة ، لاجل طويل ، اصول تفكيرها وعملها .

ويجعل اشعاع الحضارة الغربية العام من فوض العالم الغربي الحاضرة مشكلة عالمية يجب تحليلها وفهمها على ضوء المشكلة الانسانية بوجه عام، ولما لها من اتصال بالمشكلة الاسلامية .

ويتيح مثل هذا التحليل للمسلم الفرصة لكي يؤكد ذاته كانسان وليس « كمستعمَر » امام النظام الاوروبي . وهكذا يحل محل التعلق المادي الذي تقوم عليه الصلة الاساسية بين اوروبا المستعمرة والعالم الاسلامي القابل للاستعمار حالة تقدير واعتبار متبادل واتحاد اجدى . ولا يفيد هذا التغيير العالم الاسلامي فقط وذلك لانه اذا كانت وطأة الاستعمار شديدة على الحياة الاسلامية فهي شديدة ايضاً على الحياة الاوروبية لان الاستعمار الذي يقضي على المستعمَر مادياً يقضي على المستعمِر اخلاقياً.

هذا ما يدل عليه تاريخ اسبانيا منذ اكتشاف اميركا .

غير انه يبدو ان الامم المستعمِرة ، بالرغم من ادراكها لخطر

الاستعمار ، لا تقوم باي جهد لتلافي هذا الخطر .

يجب ان نلاحظ مع ذلك نزعة هذه الامم في الوقت الحاضر لتغيير علاقاتها السياسية بالبلاد المستعمَرة فتحل محل العلاقات التي تقوم على السيطرة علاقات تقوم على الاحترام كما حدث في الهند .

اما فيما يتعلق باوروبا فان اعتيادها على الاستعمار منذ مدة طويلة قد وسم الحياة بطابع يصعب معه تغيير النفسية والعادات التي هي اساس الفوضى الاخلاقية التي يتخبط فيها . ونكتفي هنا بان نشير الى علاقة هذه الفوضى بفوضى العالم الاسلامي .

ذلك لان هناك تأثيراً متبادلاً بين فوضى هذا العالم وفوضى العالم الغربي لان كلا منهما يرتدي طابعين . ففوضى العالم الاوروبي نتيجة للتطور التاريخي الذي ادت اليه العوامل الداخلية التي سيطرت على هذا التطور .

وهناك مظهر آخر حديث نشأ عن تأثير الاستعمار في الحياة والعادات والافكار منذ اكثر من قرن . فكان من نتيجة ذلك تأخر الضمير الانساني عن مجاراة التطور العلمي والفكري وهي ظاهرة تمتاز بها جميع المدنيات .

وما الضمير سوى الصدى النفسي للتاريخ واستقرار الماضي في الذات الانسانية وتبلور العادات والتقاليد والاذواق . ولهذا يظل كل ما ليس له علاقة بهذه الاشياء غريباً على الضمير .

هناك كثيرون لا يحبون ركوب الطائرة لان ما هو اثقل من الهواء لم يصبح بعد من معطيات الضمير . وكذلك الحالة في كل ما يتعلق

بمخترعات الفكر . فاذا كانت هذه المخترعات لا تتصل اتصالاً مباشراً بالماضي وبالتقاليد والعادات ظلت خـارج الضمير . ذلك هو مصدر مأساة المدنية الحديثة التي لم يصل فيها الضمير بعدُ الى تمثل معظم مـا حققه العلم .

ولقد كان هذا التأخير في العالم الاسلامي سبب معركة صفين . لان القرآن كان في مذهبه الفلسفي علماً يتجاوز افق الضمير الجاهـلي . نشأ عن ذلك انفصال بين من تمثلوا الفـكر الجديد وبين مـن ظلوا متعلقين بالتقاليد وبالنظريات الاجـتماعية وظروف الحياة التي جـاء القرآن للقضاء عيلها .

هذه الحادثة هي اساس التاريخ الاسلامي منذ ثلاثة عشر قرناً وهي تكمن وراء احداث تاريخية أخرى وتكشف عنها المنـازعات الشديدة اثر كل ازمة .

وما مذهب الخوارج والمعتزلة في الميدان السياسي وفي الميدان الفكري سوى محاولة للرجوع الى الفكر القرآني الذي لم يخضع بعـد للضمير المتأخر .

ولقد كان موضوع هذه المنازعات الانفصال بـين العالم الاسلامي الزمني وبين الفكر القرآني ؛ واذا كان الانحطاط نتيجة لهـذا الانفصال فان النهضة ، على العكس ، انما هي محاولة العالم الاسلامي في الميـدان النفسي اللحاق بالفكر القرآني والفكر العلمي الحديث .

ونرى نفس الشيء في تاريخ اوروبا حيث يفسر لنـا الانفصال بين

الضمير والعلم الفوضى التي يتخبط فيها لانها ليست سوي نتيجة لعدد من الازمات المتتابعة .

ولقد حدث الانفصال الأول في الميدان الاخلاقي تحت اسم « الاصلاح » (La Reforme) . غير ان هناك عدداً من الشيع كشيعة « الالبجوا » (Albigeois) قد دلت على ان الضمير المسيحي لم يعد يستطيع سد الثغرة التي تفصله عن النزعة العقلية التي نشأت اثر التطور العلمي . ولقد حصل الانفصال الثاني في الميدان السياسي اثناء الثورة الفرنسية التي قضت على التوازن الاجتماعي القديم واحلت محله نظاماً يقوم على المساواة بين الأفراد .

غير ان هذه المساواة النظرية لم تؤد الا الى توازن مؤقت مهد للانفصال في داخل الطبقة الثالثة التي كانت تدافع عن العهد الجديد . فظهرت عند الجاكوبيين نزعة عمالية تعارض نزعة اخرى بورجوازية . حتي اذا ما اعدم روبسبيير وقضي على كومون باريس الاولى انتصرت البورجوازية . ومع ذلك فقد ظل النزاع خفياً بين جناحي المجتمع الجديد، بين طبقة البورجوازية التي تدافع عن رأس المال وبين طبقة العمال التي مهدت الطريق لظهور طبقة جديدة هي طبقة البروليتاريا .

غير ان هذا العالم الذي نشأ عن هذا التطور المزدوج كان مليئاً بالمتناقضات مهيئا لجميع الانفصالات. ولهذا وجدت الطبقة الثالثه نفسها منقسمة تماماً حين راحت طبقة البروليتاريا تدافع عن نزعتها المادية الجدليه ضد نزعة البورجوازية الاوروبية العالمية .

ظل النزاع مدة من الزمن في ميدان الفكر بين الاقتصاديين البورجوازيين

ولاسيما الانجليز من امثال آدم سميت وريكاردو وبين اقتصادي المدرسة الجديدة كانجلز وماركس هذا إذا لم نذكر اصحاب النظريات الاستبدادية العالمية مثل باكونين . حتى إذا ماتأسست الشيوعيه العالمية الأولى وعقدت مؤتمرات بروكسل ولندن التحضيرية واعلنت في باريس الكومون عام ١٨٧١ حلت الطبقة الثالثة نهائياً محل طبقتين مختلفتين متعارضتين لم تعد خصوماتها فلسفية فقط بل سياسية ايضاً . وقد عاصر هذه الفترة من تاريخ اوروبا ـ بعد ان تفسخت اخلاقيا وسياسياً واجتماعياً ـ ازدهار عهد الاستعمار وظهور بوادر النهضة الاسلامية الاولى . ولقد ادرك العالم الاسلامي تحت ضغط كل من النزعة المادية البورجوازية والنزعة المادية البرولتيارية تاثير اوروبا في تطوره الفكري والسياسي

فتراءت له الفوضى في أوروبا حيث اخذ التفسخ يشتد بتأثير عاملين قويين وهما سرعة التطور العلمي وانتشار الاستعمار ولم تتراء له المدنية فيها.

وقد اتحدت كل من النزعة العالمية والنزعة الاستعماريه لتكونا مصيبة أوروبا كما كان علم الكلام مصيبة المجتمع الاسلامي بعد عصر الموحدين فازداد بتأثيرهما ميل اوروبا الى المادية بفضل ازدهار العلم الجديد ، واخذت الهوة تتسع مع كل اختراع جديد بين العلم وبين الضمير التقليدي . ولقد غمر هذا الضمير ، الذي طأطأ رأسه منذ نهاية القرن الثامن عشر امام الهة العلم ، فيضان من العلم هيأ في النفسية الاوربية التربة الصالحة لنمو الفكر الديكارتي وإذا به يصبح نزعة ديكارتية خطرة .

ولقد اخذت نشوة هذه القوى الجديدة بالذات الاوربية فراحت عبقريتها تنميها .

بيد أنها في الحقيقة لم تقم بتمثيل سوى دور خـادم الساحر (١) لأن الآلة التي ابتدعها ولم يستطيع السيطرة عليها راحت تقوده بذهنها الآلي وكادت تقضي عليه . فاصبح الواقـع عبارة عن حروف وارقام واصبحت السعادة تقاس بالوحدات الحرارية والهرمونات وذلك لأن هذا العهد هو عهد « الكم » وعهد النزعة الكمية في الضمائر . كما كان عهد النزعة النسبية الاخلاقية في مطلع قرن اتخـذ شعاره القول المشهور « كل شيء نسبي » . ففقد الناس معنى «المطلق» واصبحت هذه الكلمة نفسها مبهمة ميتة لا تـدل عـلى شيء لأن القرن العشرين الموضوعي ـ كذهن الآلة ـ لم يعد يفهم ماوراء آفاق المادة « النسبية»

مات معنى المطلق كمامات معنى العدالة حتى قال احدهم ذات يوم في اوروبا ان « تصفية ظالمة خير من قضية عادلة »

واصبحت الحياة الاقتصاديه كما نراها اليوم بعد ان تجرأ احدهم على القول ذات يوم « بان التجارة سرقة مباحة » . وهكـذا قضت اوروبا بنزعاتها الكمية والنسبية على عدد من المفاهيم الاخلاقية وسلبتها مافيها من نبل فحرفتها على اللغة فلم تعد تؤثر على الاستعمار اوعلى الضمير .

واصبحت المعاجم في بعض الاحيـان مقابر كلمات لم تعد تعني اي شيء لانها تدل على مفاهيم لاحياة فيها .

---

(١) اشارة لقضية خادم الساحر الذي كان ينقل الماء من البئر ، وفي ذات يوم ترك الساحر قلنسوته فلبسها الخادم وامر المكنسه بحمل الدلو لجلب الماء فاطاعته ولكنه لم يستطع ايقافها فغمرت المياه الغرفة وكاد ان يغرق لولا عودة الساحر وايقافه لفيضان الماء. (المعرب)

ويزداد خطر النزعة الكمية في اوروبا بازدياد القوة الصناعية الفنية التي تقوم عليها صناعة تنتشر في كل مكان وتزيد من شهية الانسان المادية بشكل مخيف .

كما ان هذه النزعة تعين مستقبل الطفل الذي لم يعد يختار طريقه في الحياة لما يؤديه للمجتمع من خدمات بل لما يسلب هذا المجتمع من خيرات. وهكذا يصبح هدف الانسان البحث عن الفائدة وليس ارضاء لرسالة يسعى لادائها . وهذا ما يعده احسن اعداد لخدمة مدير المستعمرات لأن هذا الموظف لم يعد بحاجة للوقوف عند حد يمنعه في بلاده عن بلوغ أقصى حد للنزعة النسبية الاخلاقية .

وتجد الاخلاق النسبية في التعلق بالاستعمار خير رفيق لها فيما يسمي « بالسيادة القومية » فيسقط عندئـذ القناع ويزول كما يزول المسحوق بتأثير شمس الاستعمار في جو يحمي فيه وطيس الرغبات والنزوات وقد انطلقت على سجيتها فاذا ما اشتهى الانسان شيئاً شرع بتناوله .

وينتهي الأمر باوروبا نفسها إلى الاعتياد على مايحمل اليها من مظاهر الحياة المحلية من عادات واذواق وافكار ويصبح فيها مسقبل الافراد متعلقاً بالكم بالرغم من محاولة اخفاء ذلك تحت ستار من البلاغة . ثم ينتهي امر هذه البلاغة الى الزوال وتتراءى الحقيقة واضحة فتصبح جميع مرافق الحياة عددية في الانتاج والدفع والثراء والأكل .

وتسير الحياة على وتيرة الكم . لقد اصبح الرقم مـلكا في المجتمع الصناعي الآلي الذي نشأ في اوربا منذ عام ١٩٠٠ كما ان حكم الاحصاء لايرد . فلس للطبيعة الانسانية ـ اي الضمير الانساني ـ اية قيمة . وهذا شأن كل مالايمكن عده او تقدير كميته . فتصبح الحياة الانسانية معادلة

عددية بسيطة، فالآلات تعدد وتحسب وتدفع الانسان الى العمل. ويسيطر على مصير الانسان قانون لسّال Lassalle المسمى بقانون la loi d'airin يكيف جسم الانسان واعصابه ويجعل منه انسانا آليا .

ان الحاجة هي اخص ما يميز الانسان . بيد ان الحاجة قد فقدت هنا انسانيتها واصبحت سلعة تجارية لا تُقبل إلا بقـــدر رواجها . واما حاجات الانسانية العامة ولاسيما حاجات الارمـــل واليتيم ، والكهـــل والمريض فهي حاجات لاتنفق . وليس من شأن الآلات الاهتمام بالاخلاق اوماوراء الطبيعة .

يا لروعة الآلة ! فهي تدور بينما المستعمرات تمدها بالمواد الاولية كما تمدها باليد العاملة بثمن بخس .

فتقوم الآلات بتحويل هذه المواد ويقوم المستهلكون القادرون على الدفع باستهلاك ماتنتج. تحسب الآلات مستوى الانتاج كما تحدد الارباح والاجور وساعات العمل .

وهكذا تبدو روعة الآلة على شرط ان لاتوجد حبة من الرمل في المحرك . ولكن في الآلة الحديثة اكثر من حبة ، ولهذا صدر عن الآلات عام ١٩١٤ ازيز مخيف. ولما كانت مصادر المواد الاولية لاتكفي كان لابد لعدد من المحركات ان تدور في الفراغ وان لاتعمل حسب مستواها العادي اي حسب نهمها الذي لايشبع . فنشأ النزاع بين اصحاب الآلات . وبعد اربع سنوات من التهديم مات خلالها الملايين انتهى العالم لاقرار الاوضاع الحاضرة وعادت المحركات الى الدوران . ولم تترك حرب الـ ١٤ ــ ١٨ اي ذكر في الضمائر التي اسكرها المال والشمبانيا . وإذا بالرخاء الظاهري يخفي موقتا حقيقة الحال .

وقد تعالى منذ عام ١٩٣٠ ازيز جديد في الآلات فكشفت الازمة هذه المرة عن الداء الاخلاقي الذي ينهش جسم المدنية ودلت على عجز الآلة لوحدها عن حل المشكلة الانسانية بواسطة الرسوم والمعادلات . فتوقفت الآلات عن الدوران والعد وحساب اوقات العمل والارباح واخذت جموع العمال تزدحم امام خزائن التعويض عـــن البطالة وخيم البؤس على العائلات .

وقد اتسم هذا البؤس بسخرية حزينة وذلك لأن سبب هذا البؤس كان للمرة الأولى ، وفرة الانتاج وليست قلته . ولهذا تمتاز عبقرية القرن العشرين في انها جعلت بواسطة الطرق العلمية من اسباب النعيم اسباب شقاء .

فاين هو الداء ؟ هل الداء في ازدياد الانتاج على الاستهلاك ؟

يالسخرية ! فالحل بسيط إذن بالنسبة للفنيين الذين يعرفون كيف يصححون الحسابات واعادة المنحنيات الى مستويات معينة وبـــذلك يقضون على هذه الزيادة . وليس هناك من عملية ابسط من هذه العملية.

ولهذا أحرقت كميات من القمح والقطن والقهوة بينما كانت بعض الشعوب في اشد الحاجة لمثل هذه المواد . وإذا بالمدنية التي ابدعت مذهب ماتوس تعمل على اخضاع المستهلكين وما يستهلكونه لهذا المذهب.

ولم تقم اية سلطة دينية بكشف هـــذه الفضيحة . لأن الذين كان بامكانهم انقاذ اوروبا مـــن الفوضى الاقتصاديـــة لم تكن لهم حاجات للتصريف ولم تكن الشعوب المستعمَرة الحافية الجائعة بقادرة على شراء اي شيء . فادى اعتبارها كادوات للعمل الى عدم الاهتمام بها كشعوب مستهلكة .

كان النظام الذي نشأت عنه الفوض في اوروبا نظاماً علميا واستعماريا

في نفس الوقت، يعتمد في تفكيره في اوروبا على العلم وفي العالم على الاستعمار حتى إذا ماحدثت ازمة ١٩٣٠ بلغ هذا النظام أوجه :

وما الحريق الذي اندلع عام ١٩٣٩ سوى عودة اللهب فهو اشبه بمقاومة مكيفيل لنفسه وهدم الشيطان لكل مابناه .

فإذا برياح القضاء تعصف باشرعة الانسان فتتم النبوءة على يدها . ولقد قال محمد النبي الاجتماعي « من حفر بئراً لاخيه وقع فيه » ثم يضيف، خوفاً من ظلم ترتكبه أمته اكثر من خوفه من ظلم تعانيه ، « يستمر حكم المشركين إذا كان عادلاً ولايدوم حكم المؤمنين إذا كان ظالماً »

ويشهد تاريخ عصرنا على صحة هذه النبوءات . فإذا باوروبا — التي كانت بامكانيتها ان تضيء الطريق امام الانسانية — تجعل من مشعل المدنية مشعلاً للحريق . وإذا بنا على ضوء النار التي اشعلتها في عالم الاستعمار — والتي امتدت الى اراضيها — امام نفس الفوضى التي نشرتها في سائر انحاء العالم، تخيم فيها كما يخيم الاضطراب والاستسلام امام قوى الشر التي انبعثت عن الاساطير .

وذلك لأن لأوروبا — التي كونتها فلسفة ديكارت العلمية وغيرت من وجهها الصناعة والتنظيم حسب طريقة تيلور — اساطيرها . وتشلها هذه الاساطير بطريقة تختلف عن طريقة اساطير مجتمع ما بعد الموحدين . فاذا كان الشلل الاسلامي لاحس له ولاصوت فإن الشلل الاوروبي ينتفض ويرفع صوته بالصراخ .

والاساطير الاوروبية اشد خطراً لانها تملك قوة الآلة والمادة ولهذا ربما قضت على كل شيء بطريقة علمية فتلقي قنابلها الذرية على البلاد والشعوب .

وتصطبغ النزعة الاسطورية في اوروبا بصبغة علمية إذ ان لها مجامعها كما لها اساتذتها وشعراؤها .

ولقد حدث قبيل الحرب الاولى ان اعجب ملازم شاب من المدفعية الا وهو ارنست بسيشاري بايمان مسلمي موريتانيافي بساطته وعمقه. وقد سنحت له الفرصة للخلوة والتأمل . ليس المهم فيما إذا كان طريق دمشق يفضي الى المعبد او الكنيسة او الجامـــع . . . فإذا ببسيشاري يؤوب الى الدين ويسلك طريق الكنيسة فينضم الى « حزب اجداده » كما كتب يقول فيما بعد . وهذا شيء طبيعي على شريطة ان لا نتنكر لمـــن اضاء السبيل امامنا .

ولقد احسّ في رحلة من رحلاتـــه بحاجة الى التبجح بقوة المدنية الحديثة المادية امام شاب موريتاني فاجابه الشاب وكان رائده :

ــ لكم الارض ولنا السماء !

كان بامكان بسيشاري ان يبتسم لهذه اللباقة . . . بيد انه على العكس من ذلك كتب يقول :

ــ آه ! ذلك هو القول الذي يجب على المسلمين انلايتلفظوا به قط.

فما مصدر هذه الصرخة التي تند من فم رجل عاد الى الدين منذ عهد قريب ؟ كان بسيشاري حفيد رينان وكان تفكيره يتفق تماماًوتفكير عمه وقد انكر بسيشاري عمهبسبب الحاده حين كتب رينان بعد حرب ١٨٧١ هذه السطور التي تدل على نفس النزعة العنصرية واحتقار كـــل ماهو انساني : « ان العنصر الاوروبي هو عنصر الاسياد والجنود . ولهذا فإن حمل هذا العنصر النبيل على العمل كما يعمل العبيد والصينيون يدفعه الى الثورة . وذلك لأن كل ثائر عندنا انما هـــو جندي لم يؤد رسالته لانه

مخلوق اوجدليحيا حياة البطولة فإذابه يجبر على القيام بمهمة لاتتفق وعنصره فهو عامل فاشل وان كان جنديا باسلاً . غير ان الحياة التي يثور عليها عمالنا تجعل الصيني والفلاح سعيدان وهما كائنان لم يُخلقا للحرب : فليقم كل منا بما خلق له فتسير الامور عندئذ على اتم وجه . »

لنتغاض عما في هـــذه الكلمات من ضعف فكري . فلقد ترك المؤرخ الكبير لقلمه العنان اكثر من مرة . غـــير اننا يجب ان نلاحظ ان قلمه يتوه هنا في سحب الاساطير .

ويكشف لنا قوله هذا عن الاسطورة الذائعة التي تسيطر على جميع الاساطير في اوروبا منذ قرن من الزمن . وينهل كل من العم وابن اخيه من نفس المنبع الا وهـــو القول بافضليـــة « عنصر الاسياد » وهو منبع صدرت عنـــه الاسطورة الـــدامية ، اسطورة مولوش الـــتي تولـــد عنها الاستعمار الذي تئن منه الانسانية كما تولدت عنها النازية التي انّت منها أوروبا .

ولقد قضت هذه الاسطورة على الاخلاق المسيحية كما حاولت القضاء على الله نفسه بالسعي الى ان تحل محله في الضمير الاوروبي . وتملأ هذه الاسطورة القلوب وتسيطر على الافكار كما انها تثير الهمم وتحدد مستقبل الشباب . وما التاريـــخ منـــذ قرن من الزمن سوى ملحمة الروح الاستعماري ، إذ يشعر الطفل الذي يولد في اوروبا انه مقدر عليه استعمار الآخرين . فإذا ما فشل في رسالته لم يكف عن تغذية ذهنه بالاستعمار كما يغذي جسمه بمحاصيل البلاد المستعمرة .

ويتغير الاستعمار في الضمير الاوروبي فيتولد عنه نزعة قومية مغالية تقوم الفلسفة بتكريرها لتصبح اسطورة « العنصر المختار » التي ستكون سبباً لاقصى درجات البربرية .

ولما كان الاستعمار يقوم على الاحتقار العنصري فإنه يؤدي الى نزعة عنصرية مغالية .

ولم تكن حرب الـ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ في الحقيقة سوى حد متوسط بين الاستعمار والنازية ومرحلة للتكرير . فكان كل فريق يدافع عن مصالحه المادية بالتغني باقوال المدنية الحديثة المعسولة فاستخدمت الفاظ « الله » و « الحق » و « الانسان » للدفاع عـــن البترول والقصدير . واصبح التاريخ عبارة عن التغني بمفاهيم ميتة لبعثها من العالم الآخر الذي دفعتها اليه مدنية الارقام والآلات . ولربما كانت هـــذه الطريقة في استخدام الدين ـ كما فعل من قبل كل من السحر والشعوذة ـ لخـدمة المصالح المادية اقبح وجه للعبقرية الديكارتية .

غير اننا حين نستجير بالله للقيام باعمال تعتمد على الخداع والغش والافساد والقتل يرسل الله الينا الشيطان لاتمام العملية والاستمرار في افساد المرافق الاجتماعية بعد افساد الفرد . وذلك لان « تعليم المستعمَر على العمل » قد نأى بالمستعمِر عن العمل الحقيقي وافقده معنى المدنية . كما ان مزاولته للظلم قد انسته العدالة واسسها التي هي احترام القانون وحق الغير . اما سهولة الحياة الاستعمارية فقد عودته على الكسل المادي والفكري . ولهذا فإن الحياة الفكريـــة في الجزائر بين طائفة المستعمِرين الذين يزيدون على المليون نسمة اضعف منها في اية مدينة فرنسية متواضعة .

وهكذا يفقد المستعمر مدنيته بالتدريج فينحط ويفقد انسانيته بعد ان عزم على ان يُفقد المستعمَر مدنيته وان ينحط به . غير انمن « حفر بئراً لاخيه وقع فيه » . وهكذا تتم النبوءة .

وإذا بالمستعمِر نفسه بعيد عن مدنيته، وإذا به لا يستطيع تفهم مشاكل هذه المدنية . فقد اثارت نزعته العنصرية فرديته في الميدان الوطني كما اثارت وطنيته المغالية الحربية في الميدان العالمي .

وهكذا ليست الادارة الاستعمارية مؤسسة عمومية ومرفقاً من مرافق الدولة بل اصبحت بالتدريج شركة و«عصابة» مؤلفة من بعض الافراد ، ثم إذا بها تستقل كما استقلت شركة الهند ويمسي نظامها الداخلي لا علاقة له بمصالح الامة المستعمِرة اومصالح الامة المستعمَرة . وإذا بنا لسنا بإزاء ادارة بل شركة من الموظفين حيث يطالب كل واحد منهم بحصته ويستولي على نصيبه كما يهوى .

وهكذا ترى المستعمِر الذي فقد كل وازع اخلاقي في الميدان الاستعماري يفقد كل وازع « وطني » .

وتأخذ النبوءات بالتمام . . . وتصبح اوروبا بدورها ميداناً يرتع فيه الذهن الاستعماري . فإذا ما اردنا اختصار سير هذه العملية البطيء كان من الافضل ان ندع مهمة ذلك الى احد المستعمَرين .

فلنستمع الى ايمية سيزير الذي تدل كتبه على الثروات الانسانية التي كاد الاستعمار ان يقضي عليها .

يجب ان نقول اولاً كيف يقوم الاستعمار بسلب المستعمَر مدنيته ، وكيف ينحط به ويثير غرائز السلب والوطنية والحقد العنصري والنسبية الاخلاقيه الكامنة فيه . كما يجب ان نبين انه في كل مرة قُطعت فيها رأس او فُقئت عين في الفيتنام او فُضت بكارة فتاة او عُذب احد سكان مدغشقر ورضي الفرنسيون بذلك انما تبع هذا تقهقر عام في المدنية ، حتى إذا ما أُحرقت المعاهدات ونُشرت الاكاذيب وأرسلت الحملات للتأديب

وقيد المساجين واستجوبوا وعُذب الوطنيون وزها الكبرياء العنصري سرى السم في شرايين اوروبا وتسللت الهمجية ببطء إلى ارضها . فإذا بها تستيقظ ذات يوم على صدمة تعود بها القهقرى، وإذا بالغستابو يخرج عليها وإذا بالسجون تعج بالمساجين وإذا بالجلادين يتفننون في اختراع الوان التعذيب . فيثور القوم في اوروبا وتتملكهم الدهشة ثم يقولون : « ماهي الاّ غمامة صيف جاءت بها النازية وتنجلي » . ويطول الانتظار ثم يزول الأمل دون أن يجرأ القوم على الاعتراف بالحقيقة حتى امام انفسهم وهي ان عهد البربرية قد اقبل ، تلك البربرية التي تتوج وتختصر كل البربريات اليومية .

اجل ان هذه البربرية هي النازية بيد ان اوروبا، قبل ان تصبح ضحيتها، قد ساعدتها على الشر وسمحت لها بالنمو قبل ان تعاني شرورها، كما انها اغمضت العين عليها واعترفت بشرعيتها وذلك لأن النازية لم تهاجم سوى الشعوب الغير الاوروبية . كما ان اوروبا قد قامت برعاية هذه النازية وهي مسؤولة عنها لان كل نقطة من مياهها الحمراء انما تتساقط في شقوق المدنية الغربية المسيحية».

وتتعدد الوان الانفصال والفساد كما تتعدد الوان النكث بالعهود والخيانة كل يوم في اوروبا . ولقد بلغ من كثرة استخدام العدالة كوسيلة من وسائل التنكيل في المستعمرات ان انتهى امر هذه العدالة الى الانحطاط .

كما ان تزوير الانتخابات في المستعمرات قد عود اوروبا على التزوير في حياتها اليومية . وكذلك فإن تقييد الضمائر المستعمَرة قد افقدها احترام كل ضمير فإذا بالتناحر يمزقها .

ويصل هذا التناحر الى ميدان العلم فيسعى ليسنكو في علم البيولوجيا

الى انزال مندل وويسمان وموروجان عن عروشهم. ولاشك ان العلم يستفيد من هذه الخصومات . لكن هذه الخصومات لا تهدف الى معرفة افضل لقوانين الوراثة، فيتحارب العلماء ليدلل كل واحد منهم على انه الأقوى. وهذا لايمزق فقط الضمير العلمي بل ضمير الانسانية المستعدة لخوض جميع الحروب والكوارث . فإذا بهذه الانسانية امام نذر محزنه تتراءى لها معها العودة الى عصر النرو جلوديت ممـــكنة . وربما اوجدت القنبلة الذرية فناً في العمار جديـــداً هـــو فن عهد الحياة في باطن الارض . فيعيش في داخـــل اعشاش ضخمة اناس استعاضوا بالآلة عن اذهانهم وبالاعداد عن مفاهيمهم الاخلاقية وبالاساطير عن الله .

ومهما يكن الامر لايستطيع العالم الاسلامي للخروج من الفوضى الحاضرة الاهتداء بهدي خارج عنه . وهو لا يستطيع طلب هذه الهداية على كل حال من العالم الغربي الذي يعيش على شفا الكارثة .

على العالم الاسلامي ان يبحث عن طرق جديدة للكشف عن مصادر الوحي فيه . ومهما تكن الطرق الجديـــدة التي سوف يسلكها فإن العالم الاسلامي لايمكنه الانعزال داخل عالم يسعى الى الوحدة .

ليس عليه إذن ان يقطع علاقاته بمدنية تمثل تجربة انسانية ضخمة بل عليه ان ينظم هذة العلاقات .

- ٥ -

الطرق الجديدة

اوجد مجتمع مابعد الموحدين الكائن الاميبي الـــذي ينمو ويترعرع ثم يمد يده لالتقاط فريسة سهلة يأخذني هضمها بهدوء . ثم تتيح له الظروف فرصة الحصول على فريسات أخرى تسد حاجاته المتواضعة . هـــكذا نشأ انسان مابعد الموحدين خلال عدة قرون وعاش معتمداً على العناية الالهية في تدبير غذائه . ثم جاء الاستعمار فاستولى على كل ما يمكن اكله ففقد الكائن الاميبي بذلك حتى لقمة الخبز . فثارت لذلك معدته ـ أي ضميره الاميبي ـ فمد يده لالتقاط فريسة خيالية سماها «الحق» .

فنشأت بذلك البو لوتيكا وهي عبارة عن يد يمدهـــا مجتمع احس بالجوع ولايملك ما يسد به رمقه . ولقد قيل ان الحاجة هي اول فعـــل تاريخي قام به الانسان في المجتمع . وهـــذا تعريف نفعي يفسر التاريخ بواسطة عملية الاستهلاك . ويمكن لهذا التعريف ان يطيل الى مالانهاية في الجزائر يد الاميبا كما انه لايناسب مرحلة التطور التي يمثلها مجتمع مابعد الموحدين .

ولاشك ان هـــذا المجتمع كان يشعر بحاجات بدائية كالحاجـــة الى الشرب والاكل مثـــلاً . لكنه لم يبدع شيئاً منـــذ سبعة قرون حتى ولو قبضة مكنسة .

ليس ذلك لأنه لم يشعر بالحاجة الى الأبداع . فلقد احست جداتنا بالحاجة الى مثل هذه القبضة حين كن ينظفن بيوتهن كل صباح بالمكنسة الصغيرة القديمة القصيرة . فكن يلعنها متألمات لانها كانت تضطرهن الى الانحناء . ولم تخطر ببال جداتنا التعبات فكرة اضافة قبضة لهذه المكنسة ، وذلك لأن الحاجة لاتصبح مجدية خلاقة إلا بمقدار ما يضفي الوعي عليها من روحيته فيجعل منها داعياً الى العمل. ولقد اتاح هذا الداعي للمجتمع الاسلامي تغيير افكاره وحاجاته الى ثمرات المدنية .

وعلى العكس من ذلك فقد حل محل الانتاج منـذ ظهور انسان ما بعد الموحدين الاستهلاك . ولهذا لا يكفي المجتمع في تـكوين تاريخه ان يشعر بالحاجات بل لابد ان يملك موضوعات الابداع ووسائله .

ولهذا كان من المهم وصف التطور حسب تعابير علم الطاقة اذ ليس قانون التبادل الذي يسيطر عـلى الحياة الاجتماعية عبارة عـن توازن بين الانتاج والاستهلاك لأن مثل هذا التوازن يؤدي الى الهلاك ويفضي الى استهلاك المنتوجات دون اية تنمية لقوى الانتاج .

كما ان مثل هـذا التوازن لايمكن تصوره وهـذا ما يفسر لنا مبدأ كارنو في عالم الحرارة الدينا ميكية . فلكي تظهر الطاقة يجب ان يسبقها ادخار للطاقـة يؤدي الى هبوط في مستواها كما يحدث عـن اختلاف القوة الكهربائية في الآلة الكهربائية . ويجب ان نعتبر ماسميناه سابقا « حاجة » كهبوط في المستوى في ميدان الطاقات الاجتماعية .

ولهـذا يجب ان نعتبر الفعل الاول في التاريخ الاجتماعي ليست هي الحاجة في صورتها المباشرة بل المبادرة التي تخلقها هذه الحاجة ثم تغذيها وتشبعها .

فاذا ما اردنا من الآن ان ننقل هذه الاعتبارات الى ميدان السياسة كان علينا ان نعتمد على الوسائل وليس على الحاجات . لسنا اذن بصدد عقيدة عن « الحق » من جهة او « الواجب » من جهة اخرى ، لأن الواقع الاجتماعي لايفضل بينهابل يوحد بينهابواسطة جدلية اساسية يقوم عليها التاريخ . ولا يغيب عن بالنا ان « الواجب » يجب ان يتخطى « الحق » في كل تطور تصاعدي لانه يجب الاعتماد على فائض القيمة حسب علم الاقتصاد السياسي . ويدلنا هذا الفائض من الواجب على تقدم المجتمع الاخلاقي والمادي . ولهذا فإن كل سياسة تقوم على الحق فقط ليست سوى دعاية ويد تمد في حياة الاميبا في الميدان الفكري ، فهي بولتيكا وليست سياسة .

ان العلاقة بين الواجب والحق هي علاقة صميمة تفسر نشأة الحق نفسه. وذلك لأنه لايمكن تصور وجودهذا الحق مستقلاً عن « الواجب » وهو الفعل الاول في التاريخ . وليست السياسة التي لاتذكر الشعب بواجباته بل بحقوقه سياسية حقة بل هي سياسية اسطورية ، لأن المسألة ليست في تعليم الشعب كلمات يرددها بل تدريبه على الطرق الفنية التي يستعين بها .

ولهذا ليست المشكلة في التغني بالحرية لأن الشعب يعرف هذه الاغنية ، كما ان المشكلة ليست في ترديد ماله من حقوق على اسماعه لأنه يعرف هذه الحقوق ايضاً .

وليس من واجبناان نلقنه فضائل الاتحاد المقدس فلقد علمته غريزته الجماعية هذه الفضائل . ليست المشكلة إذن في اطلاعه على ما يعرفه سابقاً بل هي في تزويده بالطريقة الفعالة لتحقيق مواهبه ومعارفه بشكل

اجتماعي ملموس . وكذلك ليست المشكلة في التحدث اليه عن حقوقه وعن حريته بل هي في تحديد الوسائل للحصول على هذه الحرية وتلك الحقوق وما هذه الوسائل سوى التعبير عن واجباته .

ليست القضية إذن بالنسبة لمجتمع مابعد الموحدين هي المطالبة بالحقوق بقدر ما هي استخدام الانسان والارض والزمن استخداماً علمياً لايجاد هذا المركّب الاجتماعي الذي ينتج عنه الحق بصورة آلية وذلك بفضل الصلة التي لاتنفصم بين كل من الواجب والحق .

وتقوم السياسة على اعداد ظروف التاريخ النفسية والمادية ، اي اعداد الانسان لصنع التاريخ . وتكون للفرد بعد عصر الموحدين سياسة حين يكف عن ان يكون اميبا تنتظر فريستها ، كما يكف عن ان يكون مخلوقاً معدماً هو بمثابة فريسة لهجمات الاستعمار ، فيقل حديثه عن حقوقه ويكثر كلامه عن واجباته .لايكثر القول عن شرعة الاطلنطي بل يطيل الحديث عن مصادره الخاصة .

وهو ليس فريسة سهلة اذا ماصحح مناهجه في التفكير والعمل حسب منطق عملي في الفعل ومنطق ديكارتي في التفكير فتخلص بذلك من الاساطير التي تحول بينه وبين العمل وتحد من فعاليته . ويبدو ان هذا قد اخذ يتحقق تدريجياً في العالم الاسلامي منذ قضية فلسطين التي هي اهم حادث سعيد في تاريخ العالم الاسلامي الحديث .

فلقد كشفت هذه القضية القناع عن الفوضى التي كان يتخبط فيها العالم الاسلامي نتيجة لبعض نزعات نهضته الاستبدادية .

كما انها فضحت جميع القيم الباطلة والأوهام الخادعة التي كانت تسيء الى مستقبله . فحررت هذه الهزيمة التي بعثتها العناية الالهية

العقول والضمائر بعد ان كانت تختنق في خضم هذه الفوضى فكانت بمثابة نصر رائع للواقع على الاوهام .

تفتحت امام الشعوب التي هزتها الهزيمة وايقظتها من سباتها طرق جديدة بعد ان تحررت من الاوهام واخذت تتجه نحو الواقع . فكانت هزيمة فلسطين فاتحة مرحلة جديدة في النهضة الاسلامية وذلك لأن الاساطير لايمكن ان تثبت أمام الحقائق التي كانت تغطي عليها هالة النظريات العاطفية . كما أصيبت النزعة الى الاخذ بالشيء السهل بضربة مميتة. فاخذ الضمير الاسلامي يبحث عن اسباب ضعف هذا العملاق الهائل ذي الاقدام الفخارية الذي دفعت به الجامعة العربية ضد دولة اسرائيل الصغيرة . فقدمت بذلك للعالم مشهدا جديداً لنضال داود ضد جوليات.

فإذا بالمسلم ـ بعد ان خدعته الخطب عن الحقوق وعن شرعة الاطلنطي وهيئة الامم المتحدة وبعد ان تملكته الدهشة من اندحار جوليات ـ ينطوي على نفسه انطواء سليماً . ولقد حاول مفكر فلسطيني بعد ان صدمه الواقع بانتصار اسرائيل السهل ان يبحث عن الاسباب العميقة للفوضى .

ويجب ان نشير الى هذا البحث هنا لأنه يمثل بوادر حالة جديدة في تفكير العالم الاسلامي وبداية مرحلة جديدة في تاريخه .

وهاك ماكتبه الدكتور ناظم القدسي (١) بعد اشهر من انتصار

---

(١) راجع الجمهورية الجزائرية ٩ كانون الاول ١٩٦٩ : مستوى الحياة بين شعوب الشرق الاوسط : من المفيد ان نضع امام نظر القارىء التعليق القصير الذي قدمت به رئاسة تحرير الجريدة هذا المقال : « يبدو ان الهزيمة التي انزلتها اسرائيل بجيوش تحالف الدول العربية قد ايقظت شعوب الشرق الاوسط من سباتها العميق الذي دفعها اليه زعماؤها ».

أسرائيل : « ليست اسباب مصيبة فلسطين حربية او سياسية فقط . اذ ان الهزيمة قد كشفت عن جميع العيوب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحربيـــة التي كانت تعانيها بلادنا . ولايكفي ان نعرف الاخطاء التي ارتكبناها وان نكشف عن العيوب التي نتصف بها بل يجب ايضاً ان نأخذ العبرة منها ونداويها . لايكفي لمجابهة الخطر الصهيوني عقد المعاهدات السياسية بين البلاد العربية بل يجب قبل كـــل شيء رفع مستوى المعيشة واصلاح الحياة الاجتماعية واعادة تنظيم قواتنـــا الحربية . وانا اعتقد شخصياً ان العمل الاجتماعي يجب ان يكون همنا الاساسي.

« يجب اصلاح الحياة الاجتماعية وحيـــاة الطبقات اذ لانستطيع ان نطلب من الشعب بذل التضحيات اذا كان هذا الشعب ساخطاً على نظام الحكم . وذلك لان الشعب الجائع المريض القلق على مستقبله لايستطيع النضال او يريد هذا النضال من اجل الدفاع عن نظام الحكم السائد .

« وكما ان الأب لايمكنه فرض الطاعة على ابنائه اذا لم يهيء لهم اسباب حياة شريفه فكيف يمكننا ان نطلب مـــن الشعب الطاعـــة والنظام والايمان بالمثل الأعلى القومي وبذل التضحيات اذا لم نضمن له رفـــع مستوى المعيشه والتعليم المناسب والعمل الشريف ؟ يجب ان نسرع في تحقيق ذلك لأن التطور السريع في عصرنا قد اصبح قانونا لايمـــكن الافلات منه . ولست اريد التقليل من اهمية المعاهدات السياسية والاستعداد الحربي بل اعتقد ان الحياة الشريفة هي الشرط الاساسي للوعي الشعبي والايمان بالمثل الأعلى القومي .

« ولاقيمة لهذه المعاهدات السياسية والحربية بدون هذا الوعي وذلك الايمان .

«ودليلنا على ذلك جامعة الدول العربية. ان السبب الرئيسي لاعراض الشعوب عنها هو في ان هذه الجامعة لم تعالج حتى الآن الا المشاكل السياسية العليا. بيد ان ايـــة منظمة لاتعنى بحياة الافراد من الناحية الاجتماعية والاقتصادية لايمكن ان تثير اهتمام الرأى العام. واني اعتقد انه بالرغم من كارثة فلسطين تستطيع الجامعة العربيـــة ان تستعيد اهميتها اذا مـــا عالجت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ووضعت الخطط لرفع مستوى الحياة.

« يجب تحرير الشعوب من الخوف الاقتصادي وضمان حق التعليم لها والعناية بصحتها. ذلك هو الطريق الوحيد لنهضة حقة والوسيلة الوحيدة للمحافظة على وجودنا. »

سردنا هذا المقال بكامله للتدليل على تفكير الاوساط العليا الجديد في العالم الاســلامي وما يقوله الكاتب حول ما يسميه « بالسياسة العليا » وما نسميه نحن بالبولوتيكا.

وليس هذا التفكير الجديد خاصاً بالشرق الاوسط بل هو دليل على يقظة الضمير الاسلامي منذ قضية فلسطين. ونرى ذلك في هذه الكلمات التي قالها وطني شاب في مؤتمر الـ U. D M. A الـــذي عقد مؤخرا في تلمسن ... « ينهش احشاء الشعوب العربية في المشرق والمغرب منـــذ قرون داء واحد الا وهو فقدان الثقة بالنفس والغيبة والتشهير بالآخرين والتعلق بالألقاب وتملق الكبار وبكلمة واحدة هذه اللامبالاة القديمـــة التي حملت الخلفاء والاباطرة والامراء العرب على انتهاج سياسة القوة مع الشعب الاسلامي، تلك السياسة التي لم تهتم بأية ثقافة او اي تقدم اجتماعي ».

ولقد حدث ذلك قبل أن يفكر أي استعمار في استخدام هذه العيوب في المشرق والمغرب كأسلحة مميتة »

يهمنا من هذا النقد الادبي محاولة فهم الداء الداخلي الا وهو القابلية للاستعمار . وتردد هذه الكلمات على اسماعنا لهجة لم نعتد سماعها في الاوساط السياسية والفكرية الاسلامية التي لم تكن تهتم حتى ذلك الوقت بسوى « القشة التي تراها في عين الجار » . فاذا بنا فجأة نأخذ بالتفكير « بالجسر الذي نراه في اعيننا » ! وإذا بالسياسة الاسلامية التي لم تكن سوى اتهام لا طائل تحته تتخذ لهجة امتحان للضمير محزنة .

يبدو لنا بوضوح من مقال السياسي السوري وكلمات الشاب المراكشي البسيطة فكرة « الواجب » الجديدة كعامل سياسي اساسي . فلقد فهم القوم الآن انه يجب بذل الجهود في مختلف الميادين والقيام بمختلف الواجبات لنيل الحقوق لتصبح شرعية . نشهد إذن نهاية الميل الى «الشيء السهل» وما نطالب به ونفوز به لحق من حقوقنا .

لقد فهمنا أخيراً أن العجلة لا توضع أمام الثيران وان هذه العجلة لا تتحرك بالخطب الرنانة والحماس الوطني .

يصد العالم الاسلامي إذن عن طريق السهولة التي سلكها حتى الآن ليسلك طريقاً جديدة تدفعه إرادة قوية لتوضيح المشكلات والتغلب عليها فيقضي بذلك على ميل آخر الا وهو « طلب المستحيل »

وتزول اسطورة « المستحيل » متى قمنا باي جهد ضئيل لان لكل عمل نتيجته في الميدان الاجتماعي . حتى اذا ما تعددت النتائج بصورة ايجابية تؤدي اليها أوجه النشاط الاسلامي تراءى لنا ان القيام « بالواجب »

اجدى كثيراً من المطالبة « بالحقوق » فنشهد حينئذ تكوُّن نفسية اجتماعية جديدة تطالعنا تباشيرها في الجزائر :

وتدلنا الحادثة التي سنسردها على هذا التفكير الجديد .

ورشة القديس اوجين

الأحد ٢٠ تشرين الثاني. استراحة بسبب الاجتماع الذي تعقده لجنة الجامع. الأحد «٢٧» ينجلي الطقس بعد اكفهراره بعد الساعة الثامنة. لكن المتبرعين بالعمل قد أحسوا باكفهرار الطقس فلم يأتوا حتى الآن ، ومع ذلك فقد ذهب اثنان منهم الى الورشة للاطلاع على حالة الطريق بعد هبوط الامطار الغزيرة . ولقد صمد كل شي ما خلا بعد الاصلاحات .

الاحد ٤ كانون الاول، ثلاثة متبرعين بالعمل من بلدة القديس اوجين وهم من سكان المنطقة . لقد قل التردد بعد الاستعانة بالتجربة فبُنيت الدرجات من حجارة ضخمة سوف تصد كل الهجمات ، وحفر منحدر بسيط في كل درجة لانسياب المياه نحو حفرة أُقيمت بين الطريق والسياج ولقد مُهدت الطريق بواسطة خليط من الحجارة وتراب الشيت . وسوف يكون هذا الخليط بعد هطول الامطار الغزيرة حاجزاً متماسكاً يضمن صلابة العمل ... فرغنا من شق خمسة عشر متراً من الطريق .

ملاحظات : قدم لنا اليوم أحد المتبرعين القهوة خلال فترة الاستراحة فاشاع هذا بيننا مودة ارتحنا لها . وكنا نتبادل الافكار اثناء العمل ونرد بسخرية على سلام المارين المجاورين للطريق . كما كنا نقدر قولهم « كان الله معكم » حق قدره ، فكنا نشكرهم بأدب غير اننا كنا نشير

الى عابر السبيل المؤدب اننا نقدر ايضاً عمـــل ساعديه : فكان يبتسم ويقول : « انني مشغول اليوم وسوف أكون معكم في المـــرة القادمة » وكثيراً ما حدث أن وفى بوعده ، الى الاحد القادم اذن :

ذلك هو الشيء الجديد ! فلقد دلل الشبان الجزائريون الذين مهدوا هذا الطريق القصير في بلدة القديس اوجين على وجود الورشة وانه لا يجب الدوران حولها بالعويل والنحيب بل الدخول اليها مع المجرفة والمعول.

ولقد قضت هذه الآلات التي أزالت التراب على الميـــل إلى الشيء السهل . فهل يدرك هؤلاء الرواد انهم قد مهدوا اول طريق في تاريخ الجزائر ؟ وهو طريق متواضع لا يمر بالبلدة بل يظل مجهولا مثل اولئك الذين شقوه ، ولكنه يسير رأساً نحو التاريخ !

من الافضل ان لا يعلموا ذلك . فلقد كان الرواد دائما مجهو ـ ين لانهم يكتفون بشق طريق الواجب . ولقـــد كان بامكانهم هم ايضاً التحدث عن الحق وعن سكان بلدة القديس اوجين التعساء .

ولكنهم آثروا اصلاح الطريق كما فعل المتبرعون من سكان المنطقة (١) وهكذا أعادوا إلى هذه الفكرة الرئيسيه مغزاها الاساسي ، لأن توزيع العمل الـــذي ينتج عن التطور الاجتماعي يـــؤدي الى ظهور طبقة المستأجرين .

بيد أن هذا التوزيع لا يعتم ان يخفي التمييز الاساسي بين العمل والاجر

(١ يرى المؤلف في هذه البادرة خير دليل ع نظريته عن القيام بالواجب نصف ساعة كل يوم . راجع شروط النهضه .

وتختلط الفكرتان حين يصبح العمل سلعة تباع وعبودية يعانيها الانسان الذي يضطر لبيع ساعات العمل لمستخدمه بثمن معين . ولا شك انه من الطبيعي ان يحدث ذلك في مجتمع منظم قد وزع فيه العمل . بيد ان الخلط بين الفكرتين يصبح خطراً في مجتمع لا يزال في طريق التنظيم ، لانه يبعث على الكسل عند الفرد الذي لا يجد من يشتري ساعات عمله .

وتظهر نتيجه ذلك في الميدان الاجتماعي في صورة البطالة وفي الميدان النفسي في صورة استعباد اخلاقي يتخذ طابع الميل الى « الشيء المستحيل » حين لا يؤمن الفرد بانه يستطيع العمل او يجب عليه ان يعمل بدون مستخدم يدفع له ثمن ساعات عمله .

لاشك ان لأعادة هؤلاء الشباب الى العمل مغزاها الحقيقي الذي يعتمد على شروط اجتماعية اخرى . لكن من الممكن جداً أن تُحقق هذه الشروط بالتدريج كما تحققت سابقاً على أيام النبي والصحابة الذين بنوا أول مسجد في الاسلام .

ولن تظل الظواهر التي تبدو اليوم على شكل بوادر شخصية حالات فريدة بل سوف تكون الباعث على اوجه نشاط اجتماعية مقبلة . ولسوف تلحق مثل هذه الظواهر بمجرى النهر العميق وتتضخم بتضخمه .

ولقد انتشر هذا التفكير في الاوساط الرسمية كما يدل على ذلك توزيع الاراضي في سورية . فلقد اثيرت ، لاول مرة في تاريخ العالم الاسلامي الحديث ، مشكلة الانسان والارض واصبحت هذه المشكلة جزءاً من الدستور القومي (١)

---

(١) اثارت الثوره المصرية بعد ثلاث سنوات على كتابة هذة السطور هذه المشكلة بصوره نهائيه .

وأهتمت هذه التجربة بالانسان البدوي الرحل وعملت على تحضيره كما عُنيت بالارض وسعت لاعدادها اعداداً أفضل يتفق وحالة الشعب العامة : ولا شك أن المشكلتين متصلتان وذلك لانه لا يمكن تحضير البدوي الا بعد استقراره على الارض .

وهذا رأى الدستور السوري اقتطاع ملايين الهكتارات من املاك الدولة أو الممتلكات الكبيرة وتوزيعها بمقدار خمسة هكتارات لكل بدوي؛ ولقد اعتمدت الباكستان هذا التوزيع الذي من شأنه أن يغير، ولا شك ، تكون المجتمع الاسلامي (١) يسهل التنبؤ بهذا من الناحية الاقتصادية كما أن مشاركة البدوي في الحياة الاجتماعية تزيد من طاقة البلاد الانسانية وتغير اوضاع الحياة النفسية . فينتج عن ذلك تلقيح طبقة طبيعة البورجوازي الدمشقي الكهلة بطبيعة البدوي الشابة العذراء .

ولما كان العنصر البدوي ضخم العدد فان تمثله لا يكون عن طريق امتصاص يؤدي الى فنائه بل انما يكون عن طريق انتشار متشعب في المجتمع السوري فيغنى بذلك وجه البلاد الاجتماعي حيث تقل الفروق ولا تختلف الطبائع كما هو الحال في سائر البلاد العربية .

وذلك لاننا نلقى في جميع هذه البلاد ثغرة واحدة وهي فقدان التنوع فهناك الباشا والعامل وهناك المتعلم والجاهل ؛ ولهذا يفتقد وجه البلاد الاجتماعي الى الاستمرار على عكس ما يجري في أوروبا حيث تعمل

---

(١) علمنا بعد مضي اكثر من سنة على كتابة هذه السطور ان شاه ايران قد افتتح عام ١٩٥١ بمشروع كبير لتوزيع الاراضي .

الاستعدادات والكفاءات المختلفة على اقامة الصلة بين ثمرة النبوغ وعمل اليد بواسطة تسلسل القيم بانتظام فتتم كل واحدة منها الاخرى ،وهكذا تجمع بين جهد العالم وعمل الراعي وبين الطبيب والمهندس والرسام والفنان والصانع والعامل والحارث .

يفتقد العالم الاسلامي في الوقت الحاضر الى هذا الغنى في الطبقات الاجتماعية . فيمثل الطبيب في الجزائر مثلا القمة ثم يليه رأساً الشحاذ . ويفسر لنا هذا الفقرُ الاجتماعي النقصَ الفكري في الطبقات الحاكمة في هذه البلاد وذلك لأن النبوغ ليس سوى انبثاق الجهد المتواضع الذي يتصاعد من جميع الطبقات الاجتماعية في المجتمع ثم يفيض في الذروة . ونستطيع أن نشاهد هنا تعاون كل من الفكر والجسد . فحيثما توقفت اليد عن العمل توقف الفكر عن النضج لأنه متى عجز النبوغ عن الحصول على عناصره المقومة في طبقات المجتمع عجز عن التألق في قمة هذا المجتمع . ولهذا كانت المحاولة التي اجريت في سورية محاولة تلقيح تدل على نضج في الافكار . فاستيقظت القوى من سباتها وخرجت إلى الحياة الاجتماعية سواء في الدستور القومي أو في ورشة متواضعة خاصة .

ولهذا يبدو أن النهضة تريد التخلص من الفوضى والسعي الى النظام والتنظيم . فينتقل حينئذ الانسان الاميبي من حياة التفسخ والقابلية للاستعمار الى الحياة المثمرة ليصبح عضواً في مجتمع لم يعد قابلا للاستعمار .

وهكذا ينتقل مجتمع ما بعد الموحدين ، من الناحية الاجتماعية الى طور المدنية الذي يتكون من مركّب اصيل من عبقرية الاسلام الخاصة ومن العبقرية الحديثة .

ويتطلب كل هذا معرفة عميقة بالانسان وامكانياته وواقعه كما يتطلب امتحاناً دقيقاً لقيم الاسلام الاجتماعية . ولهذا كان علم النفس وعلم الاجتماع ضرورين لا كتشاف قيم النهضة الاسلامية الجديدة ومعرفة الطرق الجديدة التي لا تزال تغطي عليها بعض أساطير عصر ما بعد الموحدين .

يجب على المرء أن يعرف ذاته ليعرف ما هو الانسان .

وهذا لا يتيسر لحكام العالم الاسلامي الا عن طريق استبطان داخلي ونقد شديد للضمير ، وذلك لأنه إذا ما أريد معرفة عيوب قضيب من الصلب سوف يستخدم محوراً لمحرك آلة من الآلات حُلل هذا القضيب لمعرفة تكوينه الداخلي . ولا مجال لمعرفة ذلك عن طريق آخر . وكذلك إذا ما أردنا معرفة الانسان، وهو محرك الحياة الاجتماعية، وجب علينا ان نسبر غوره لتنكشف لنا بذلك خفايا الشخصية الانسانية في كل ما تأتيه من أفعال . ونستطيع بواسطة هذه الطريقة ا كتشاف خفايا النفس الاسلامية بعد عصر ما بعد الموحدين فنعرف بذلك مواضع الاصلاح فيها .

ولقد ارتبطت وجوه الاصلاح هذه دائما عبر التاريخ « بتجارب شخصية » لان الانسانية تكتشف حقيقتها عن طريق تجارب بعض الاشخاص . ولما كان الدين هو التعبير التاريخي الاجتماعي عن هذه التجارب التي تكررت خلال العصور فانه بهذا أصل جميع التغيرات الانسانية .

لا يمكننا النظر إذن الى الحقيقة الانسانية من الناحية المادية فقط ، كما اننا نعلم ان الوهم الذي يؤدي اليه النظر الى الحقيقة من ناحية خاصة ، فاذا مابدت لنا الدائرة في بعض الاحيان كدائرة فانها في أحيان أخرى

تمكن أن تبدو على أنها ليست سوى خط مستقيم .

يكون الانسان في الحياة الاجتماعية عنصراً نفسياً زمنياً وهو لهذا لا يتصرف فقط بالنسبة لهذه الزمنية أو بالنسبة لحاجاته المادية بل يتصرف أيضاً بالنسبة لنفسيته وروحيته .

تلك هي حقيقة الانسان التامة التي يجب معرفتها لادراك الانسان في كليته . ولا يمكننا تحديد الشروط لاصلاحه إذا ما أهملنا إحدى هاتين الناحيتين وهي الناحية الاخلاقية والناحية الزمنية . ولهذا كان الانسان بالنسبة الى الناحية الاولى « انسانا متدينا » . يتدخل الدين هنا مباشرة في طريقة الاستبطان على انه أساس الضمير الذي يبحث عن نفسه .

ولما كانت الناحية الاجتماعيـــة متصلة بالضمير الديني عـن طريق الانسان فانها لا يمكنها بذلك الانفصال عن الضمير الاخلاقي .

فلا بد إذن ، قبل القيام بأي اصلاح اجتماعي ، من البدء بالاصلاح الديني .

فكيف تعرض لنا المشكلة في العالم الاسلامي الحديث ؟

أثارت مدرسة الاصلاح المشكلة كما رأينا بصورة كلامية، بينما اثارها اقبال بصورة أخرى فلم يطالب بمعرفة الله بل بوعي هذا الأله وذلك ليس عن طريق مفهوم كلامي بل عن طريق نوع من الا تحاد بالله .

ولقد اتجهت النزعة الاصلاحية - التي يرجع اليها الفضل في القضاء على توازن عصرما بعد الموحدين ـ الى الفكر .

وبهذا جعلت من المشكلة مرحلة من مراحل المدنية الفكرية .

فتكون بذلك قد قطعت مرحلة اساسية من مراحـــل التطور وهي

وهي المرحلة الروحية التي تتعلق باصلاح الفرد واصلاح القيم الاجتماعية لاول مرة .

ليست إذن « العودة الى السلف » التي تقول بها حركة الاصلاح الكلاسيكيه حادثا تاريخيا ، بل هي عبارة عن ميل لا يرجع بالانسان الى عهد الوعي بل الى عهد العلم الكلامي ، اي الى عهد ما بعد صفين .

فهو اذن اصلاح يقوم به علماء الكلام لا يمس طبقات الشعب الا قليلا . ولقد شذت الجزائر عن ذلك بفضل شخصية الشيخ بن بادس الرائعة التي وصل اشعاعها الى ضمير الشعب نفسه. ولا يبدو اليوم بصورة اجمالية ان حركة الاصلاح لاتزال تحتفظ بهذا النفس الروحي والانطلاق الصوفي اللذين اتصفت بها في البدء .

فلقد رأينا انها اتخذت طابع تعليم يهتم بتربية الاعوان اكثر من اهتمامه بأعداد المصلحين. كما يبدو ان هذه الحركة سوف يحل محلها نزعة تتفق ورغبة اقبال . (١)

فلقد نشأت في جميع انحاء العالم الاسلامي ، منذ خمسة عشر عاماً، جمعيات يحاول الضمير الاسلامي من ورائها انتهاج طرق جديدة .

ولقد الف الشباب المسلم قبل عام ١٩٣٩ في مصر وسورية جمعية « الشبيبة المحمدية ». وأحدث هذه الحركات التي تدل على النزعة الجديدة هي ولا شك حركة « الاخوان المسلمين » في مصر وانصارهم العديدين في

---

(١) دلتنا احاديث قمنا بها مؤخراً في الاوساط الاصلاحية الجزائرية على اهتمام هذه الاوساط، تحت ضغط الحوادث وتكرار النقد الى للوصول صيغة جديده .

سورية. وليس لدينا، للاسف الشديد، مايكفي من المعلومات عن هذه الحركة التي تقوم على « المؤاخاة » بين المسلمين كما يدل عليه اسمها ، وذلك لان لان الامة الاسلامية الاولى لم تقم على العاطفة بل قامت على «المؤاخاة» بين الانصار والمهاجرين .

يجمع هذا الميثاق نفسه بين الاخوان المسلمين المحدثين عن طريق جماعة تشترك فيما بينها في الافكار والممتلكات . وليس زعيم هذه الحركة حسن البنا فيلسوفاً أو فقيهاً بل هو رجل قام للدفاع عن الاسلام بعد تطهيره من كل ما علق به خلال التاريخ . وما عقيدته سوى عقيدة القرآن نفسه . ولا شك ان حركة الاصلاح الكلاسيكية تقول بنفس هذه العقيدة غير انه يجب ان ندرك أن حفظ القرآن في المدرسة القديمة مثلا انما يستخدم كوسيلة تربوية في التعليم الفكري .

يصبح القرآن هكذا المرجع الذي يمدنا بالمعايير المختلفة لحد حض أقوال اعدائه كما يمدنا بالوسائل التي تحول دون بعض العادات التي لا تتفق والسنة الشريفة ، كما انه يستخدم كانموذج فني ومثال ادبي في علم البلاغة العربية .

نرى من ذلك أن القرآن في جميع هذه الحالات لا يمس ضمير انسان ما بعد الموحدين وطبيعته مباشرة ، كما انه لا يمس حياته ووجوه تفكيره الاساسية وسلوكه فهو بهذا وسيلة « للتجديد» وليس داعياً الى «التجدد» .

ولا شك ان اهميته الاجتماعية كبيرة لانها اساس النهضة الحالية . يفسر لنا هذا التجديد تفسيراً نفسياً ما سميناه بالتراكم . بيد أن هذا التجديد شرط مادي «للتجدد» الذاتي الذي هو عبارة عن جوهر النهضة،

بينما « التجدد » الذاتي الذي لا يمس الا الفكر انما هو مظهر التجدد الخارجي .

وتتجدد قيمة القرآن نفسه بفضل حركة الأخوان المسلمين فتصبح قيمة فعالة ووسيلة لتجديدالانسان . ويعترف الادباء الملمون بالثقافة الاسلامية الذين اتيحت لهم الفرصة للاتصال بحسن البنا بالاجماع بقدرته الغريبة التي تصبح معها الآية القرآنية داعياً حياً يفرض على الفرد سلوكاً جديداً ويدفعه الى العمل . فيؤثر القرآن كما لو كان قد تجدد على شفاه زعيم الأخوان المسلمين .

ولربما ساء البعض القول بأن القرآن قد تجدد على شفاهه بقدر ما يبدو لهم أن هذا التجديد يرجع لسحر يملكه حسن البنا . ومع ذلك ليس في الأمر أية غرابة ، فلقد كان استاذا في التعليم الثانوي ، وكان يذهب في كل اسبوع الى أحد جوامع القاهرة لأداء فريضة الجمعة ، فكان ينتهز هذه الفرصة لتذكير المؤمنين ببعض تعاليم القرآن .

ولم يكن يقوم بتفسير هذه التعاليم بل كان يدع أمر ذلك الى عالم الازهر المتخصص في مثل هذه الامور ، وذلك لأن التفسير يشمل البحث اللغوي والفقهي والفلسفي والتشريعي والتاريخي فهو بهذا ميدان علمي ولا يمكن للمفسر أن يقول سوى الحقيقة التي يؤمن بها هو وسائر المستمعين اليه ، لكن هذه الحقيقة لا تتصل بالواقع الا في الميدان الفكري ، وهي صلة نظرية صرفة بين الحياة والعلم .

ولو فرضنا ان ما يقوله المفسر ليس موضوع الجدل كفكر تجريدي فان قوله هذا لا يمكن أن يؤدي إلى اصلاح عميق في العوامل الاجتماعية

الأساسية عن طريق مركّب اجتماعي جديد .

بيد أن هذا المركّب هو الوسيلة الوحيدة لاقامة علاقة عضوية بين العقيدة الاجتماعية وموضوع هذه العقيدة.

ولهذا يمكننا المقابلة بين تعليم المدرسة الاصلاحية القديمة وبين حركة الاخوان المسلمين . فنرى ان التعاون الاسلامي يقوم عند اصحاب الحركة الاصلاحية على فكرة الاخوة التي هي ليست سوى عاطفة بينما تصبح هذه الاخوة عند حسن البنا « تآخياً » .

وهذ التآخي هو أساس فكرة الاخوان المسلمين .

يؤدي هذا التآخي البسيط الى تغيير تام للانسان الذي ينتقل من طور ما بعد الموحدين الى طور النهضة ، كما انتقل فيما مضى من عهد الجاهلية الى عهد الامة الاسلامية .

ولا يستخدم زعيم الاخوان المسلمين لتغيير الفرد سوي القرآن وهو يستخدمه في نفس الظروف النفسية التي استخدمه فيها سابقا النبي واصحابه: ذلك هو السر الذي يقوم على استخدام القرآن كوحي منزّل وليس ككتاب محفوظ .

وإذا كان حسن البنا يؤثر في مستمعيه تأثيراً قوياً فما ذلك الا لأنه لا يفسر القرآن بل يوحيه الى الضمائر والنفوس ، فلا يعود القرآن في فمه مرجعا قد فقد الحياة وقانوناً محفوظاً، بل يمسي فيضاً فعالا واشعاعاً يأتي من السماء مباشرة للهداية ومصدراً للقوة يوحد بين الناس .

فهو بهذا لا يطلعنا على اله علماء الكلام والفلاسفة بل يكشف لنا عن إله فعال قدير ، ذلك الاله الذي كان المسلمون الاوائل يشعرون بوجوده

في معركة بدر وحنين .

تظهر هنا حقيقة القرآن مباشرة بواسطة تأثيره المباشر على الضمائر والناس والاشياء .

وهكذا يحل محل الفكرة التجريدية عن القرآن قيمة ملموسة هي عبارة عن مركّب من الفكر والعمل ينصهر في تطور المجتمع الذي يفكر فيما يعمل ويعمل على تحقيق ما يفكر فيه.

تعاليم حسن البنا تجربة شخصية لا تستوحي النص القرآني بل تنهل من منبع الوحي نفسه وتظهر ثمرة هذه التجربة في شكل جقيقة فعالة تؤثر في جميع ميادين الحياة. ثم ان هذه الحقيقة تعمل على تغيير نفسية الفرد الذي هو اساس هذه الحياة . فيدرك حينئذ الشاب المصري الذي كان يلتهب حماسه الوطني في الخطب الرنانة للمطالبة بحقوقه ان الطريق الوحيد للوصول لتحقيق هذه الحقوق انما هو طريق الواجب ، وتتراءى له امكانياته وتأثيره في النفوس والاشياء بعد سلوكه لهذا الطريق .

فيصبح حينئذ الداعية الذي يُسمع نداؤه ثم إذا بهذا النداء يأخذ بيد أناس آخرين يمسون بدورهم اخوانا له .

ويتحرك عندئذ المحرك الضخم فيثير النشاط في نفس الوقت في حياة البلاد بفتح المصارف لتوجيه رأس المال واصدار صحافة قوية تشرف على الثقافة وانشاء صناعة تسهل العمل والتوجيه .

ولهذا جمع الاخوان المسلمون المليارات (من الفرنكات) وقاموا على استثمارها فأقاموا بذلك أساسي حياة الفرد الضروريين وهما الاساس الاخلاقي والاساس المادي .

وبالرغم من فض حركة الاخوان المسلمين واغتيال زعيمهم فانه من المنتظر ان تثمر بذورهم وذلك لان الافكار التي تتفق وعناصر الضمير الانساني لا يمكن أن تزول .

فهي تنساب احياناً خفية مع مجرى هذا الضمير ثم تظهر في اللحظة الحاسمة . هكذا ظهرت أفكار ابن يتيمية في الاسلام الحديث في صورة الأصلاح ، وكذلك لا يمكن لافكار حسن البنا أن تنفصل عن تطور العالم الاسلامي حيث أثارت من جديد « الازمة الاخلاقية » وفتحت الطريق ، على ما يبدو ، أمام انجع وسيلة للاصلاح (١)

ولهذا لم نهتم هنا بالتسلل الزمني في حديثنا عن هذه التجربة التي نرى فيها وسيلة وليست غاية في نفسها .

فهي محاولة يقوم بها العالم الاسلامي للخروج من الفوضى الحالية وبهذا فهي تمثل في تاريخ الاسلام الحديث المحاولة الاولى الايجابية لتكوين مركّب بيولوجي تاريخي، فوجدت أفكار العالم الاسلامي في الوقت الحاضر بادخال العنصر الصناعي الفني الحديث كعامل من عوامل التطور ، كما انها تمثل حلقه اتصال تعود بنا إلى منبع الروح الاسلامية نفسها

---

(١) لا تزال هذه الاعتبارات صحيحة بالنسبة لتجربة مؤسس الاخوان المسلمين الشخصية . ومع ذلك يرى المؤلف نفسه مضطراً اثر زيارة قام بها مؤخرا للمشرق الى تعديل حكمه على الحركة ذاتها التي يبدو انها اصبحت على يد زعمائها الجدد وسيلة سياسية قد تجردت من طابعها المدني الذي اصطبغت به في البدء ، ولهذا يبدو ان الحركة في هذه المرحلة لا تستخدم الدين الا كوسيلة لتحقيق اغراض عملية مباشرة (١٩٥٤) . المؤلف .

تتخطى الاساطير والاوهام التي انتشرت في مجتمع ما بعد الموحدين ، فتكون بذلك أول جهدلاعادة بناء المجتمع الاسلامي بالعودة الى مهندس هذا المجتمع الاول وهو محمد .

ولقد أخذ المجتمع الجديد يتكون بالرغم من أن هذا التكون يجري بصورة مستبدة ، ولسوف يزول هذا الاستبداد متى مـا تزعم الفكرُ الصناعي الفني ـ الذى اصبح عاملا من عوامـل التاريخ ـ حركةَ التطور الحالية .

٦

تباشير العالم الاسلامي

ليس العالم الاسلامي مجتمعاً منعزلا يمكنه ان يتم تطوره بمعزل عن الآخرين ، وهو يقوم في المأساة الانسانية بدور الممثل والمتفرج .

ولهذا وجب عليه ان يلائم بين وجوده المادي والروحي وبين مصير الانسانية ، فوجبت عليه بذلك معرفة العالم ومعرفة نفسه واطلاع الغير على حاله كي يشترك بصورة فعاله في التطور العالمي .

لا بد له اذن من تقدير قيمه الخاصة وسائر القيم الاخرى التي يتكون منها التراث الانساني . ولا شك ان ذلك صعب في مجتمع لا يخضع تطوره لاي معيار . ولقد كتب جب بصدد ذلك (وان كان قوله لا يخلو من المبالغة) يقول :

« تضل النزعة الحديثة في تيه من النوازع الشخصية يعرضها لخطر الهلاك في أول هوة خفية تعترضها ، وذلك لانها لاتعتمد على نظريات تقوم على اسس سليمة يقبلها العقل ولا تتبع طريقة منظمة في التفكير . »(١)

ومع ذلك فإنه قد حل محل هذه النزعة التجريبية منذ قضية فلسطين ، كما اشرنا اليه في الفصل السابق ، تفكير نقدي واهتمام بالمنهج الذي يجب اتباعه .

---

(١) راجع جب « النزعات الحديثة في الاسلام » صفحتي ٦٦ – ٦٧ .

ولهذا يبدو انه يوجه احكامَ الحكومات وأعمالَها تفهم أفضل للنفس وللاخرين وتعمق دقيق للغرب وروحه .

بيد أن كل هذا لم يتجسد حتى الآن في عمـــل اجتماعي يشمل معظم العالم الاسلامي ويعرف وسائله . فلم يباشر، بعد ، العالم الاسلامي العملَ الصناعي الفني الذي يمكنه من احتلال مركزه في العالم الحديث الذي تترأس الفعالية فيه ذروة القيم . والضرورة لذلك ملحة لأن العالم الغربي يشرف على نهاية تجربة استمرت عدة قرون وهو يبدأ تجربة أخرى يتقرر بموجبها وجوده أو فناؤه حسب قول شكسبير .

ولقد بلغ من تعارض الظروف الحالية ان مصير الانسانية يبدو موزعاً على السواء بين الوجود والعدم، واذا كانت الاسباب العلمية والاقتصادية قد هيأت العالم الى الاتحاد فان الافكار ، على العكس ، تثير فيه عوامل النزاع والخصام . نحن هنا إذن أمام هذا الانفصال الدائم الذي نتج عن تأخر الضمير عن اللحاق بتقدم العلم .

غير أن هذا الانفصال، اليوم، قد أصبح لا يتلاءم ووجـــود الجنس البشري. ولقد أدت الظروف الاقتصادية التي أوجدها القرن التاسع عشر الى اتخاذ اجراءات ايجابية في مختلف الميادين تطبع العالم بطابع عالمي بعيد الارجاء . وما محكمة العدل في لاهاي والقانون العالمي والقانون البحري سوى مظاهر فردية لهـــذه النزعة العامة التي لا تزال تمهد السبيل أمـــام توحيد العالم .

كما ان مختلف المؤتمرات العـــالمية والفنية واتحادات العمال العـــالمية كاتحاد البرق والبريد ، تدل على اضطرار الشعوب للتعاون في تنظيم حياتها

وتظهر نفس الحركة العالمية في الميدان السياسي حيث ابتدأت بتنفيذهـا جمعية الامم السابقة .

وهكذا نشهدازدياد التباشير التي تؤذن بتكوين اتحاد عالمي في مختلف ميادين الحياة العالمية . ولقداشتدت هذه النزعة منذ الحرب الاخيرة، وهي ترتدي اليوم مظاهر جديدة ليس أقلها دلالة « المواطن العالمي » .

ولقد عجل العامل الصناعي الفني، أكثر من اي عامل آخر، في تضخم هذه الحركة فقضت الصناعة الفنية على المكان ولم يعد يفصل الشعوب بعضها عن البعض سوى حضاراتها . ولقد ازداد الفرق بـين الشعوب ذا ما فكرنا بالجزائري الذي لم يهتم احد بتعليمه وقابلناه بالانسان الذي يفلق الذرة في أميركا وروسيا . فاذا كان العلم قـد ازال المسافات الجغرافية بين الناس فانه لا يزال هناك فروق كثيرة بين ضمائرهم .

وهكذا تتعارض الافكار مع الواقع . اصبحت الارض كرة صغيرة ولكنها شديدة الالتهاب فاذا ما اشتعلت النار في طرف من الكرة الارضية امتدت لتوها الى الطرف الآخر فيها ، فلم يعد بالامكان الفصل بين المشاكل والحلول وانتهاج سياسة اوروبية من جهة استعمارية من جهة ثانية .

ولهذا فان النزاع في الهند الصينية، الذي لم يكن يتعدى حدود هـذه البلاد الجغرافية لخمس وعشرين سنة خلت، قد اصبح اليوم نزاعاً عالميـاً وامسى موضع اهتمام عامل المرفأ في اوران الذي يهتم به لانه مستعمَر كما اصبح موضع اهتمام الياباني الذي يشغله هذا النزاع لانه يستهلك الارز .

انقلب العالم إذن رأساً على عقب وافتتح صفحة جديدة في تاريخـه عنوانها : « اما أن يستمر الجنس البشري وإما أن يفنى . »

فهل سيجد زعماء العالم الحل السعيد الذي يضع حداً لهذه المشكلة بصورة سلمية ؟ .

نحس ،ويا للأسف، إذا ما نظرنا الى اعمالهم اننا امام فريق من الرسامين الذي يسيرون أثناء النوم فيعمدون الى اعادة رسم بناء قديم متداع بينما أخذت المعاول تهد اركانه لهدمه . ولم تعد ريشة الرسام سوى آلة سخيفة لا محل لها في ورشة مضطربة تحتاج الى المعاول والمجارف لازالة انقاض العالم القديم وبناء العالم الجديد . واذاكان هولاء الزعماء يرفضون بناء العالم الجديدفان هذا العالم سيبني نفسه بنفسه بالرغم عنهم .

ولا تزال هناك بعض الافكار التي تسند الاستعمار بيد ان عوامل فنائه ستتمكن في النهاية من القضاء عليه .

ولربما تساءل البعض عن معنى اعلان احترام الشخصية الانسانية و « التصريح بحقوق الانسان » بالنسبة لاولئك الناس الذين نحضر واعلى الطريقة الاستعمارية ؟ .

هناك قاسم مشترك بين جميع هذه التصريحات الا وهي الحضارة المادية التي يمكن ان تعمل على بناء امبراطورية وفرض الاستعمار ولكنها لا تستطيع بناء مدنية ، وذلك لأن هذه الحضارة،وقداتصفت بجميع صفات المادة الجامدة ،عاجزة عن اللحاق بتطور ما تنتجه :فاذا بهاتعيش اسيرة تناقضها بفضل طرائقها الديكارتية ، فلم تهتم بالغاية التي تسعى اليها بل اكتفت بالاسباب وحدها . ولذلك لم تُثر بعدُ مشكلة وضع الشيء في خدمة الانسان امام الضمير الغربي ، فاذا بهذا الغرب ينتج وينتج ولكنه يعجز عن توزيع انتاجه توزيعاً عادلا . ولذلك وجدت اوروبا العقلية،

التي اوجدت الآلة، نفسها عاجزة عن اثارة المشاكل الانسانية بصورة صحيحة ، وعجز العلم فيها عن تحديد كل علاقـــة لا تخضع للقياس ، وذلك لانها بعيدة عن وعيها . تعرف اوروبا كيف تصنع المادة ولكنها لا تعرف كيف تجعل هذه المادة مفيدة للانسان وذلك لان عملية الانتاج في اوروبا لا تحدد الشيء بالنسبة الى الانسان بل تحدد الأنسان كوسيلة بالنسبة للشيء المصنوع .

ولما كانت اوروبا قد اصبحت صناعية فانها فقدت بذلك اخلاقها ولم تعد تعرف كيف تكتشف الغاية الانسانية وراء الرقم والكميةووراء حدود عالم لا يعرف الا المادة . يقوم توازن المدنية بينالروح والكم، بين الغائية والسببية ، حتى اذا ماامال هذا التوازن الى جانبأو آخرهوت المدنية إلى الحضيض .

ولقد فقدت المدنية الاسلامية توازنهـــا حين لم تعد تراعي هـــذا التوازن بين العلم والضمير ، بين المادة والروح : فتردت في حضيض ما وراء الطبيعة وفوضى التصوف اللذين انتهيا بها الى الانحطاط .

ونشهد اليوم تجربة اخرى سوف تنتهي الى فقدان توازن آخر وهي ان المدنية الغربية التي فقدت معنى الروح تشرف على الهلاك .

ليست مهمة العالم الاسلامي، اذن، الفصل بين القيم بل هي التوفيق بين العلم والضمير ، بين الاخلاق والصناعة، بينالطبيعةوما وراء الطبيعة لبناء عالم حسب ظروفه الملائمة وغايته الموجهة .نحن بحاجة ، لكي نعيد الشباب الى العالم، الى انسان جديد يستطيع تحمل عبء وجوده الاخلاقي والمادي ويكون بمثابة متفرج وممثل .

ولا شك أن انسان مابعد الموحدين كهل متهدم بيد ان العالم الاسلامي يحتوي على قسم كبير من هذا الشباب الضروري ، وذلك لأنه احتفظ ، بالرغم من قابليته للاستعمار، بمعنى أساسي وهو معنى القيمة الاخلاقية التي يفتقد اليها التفكير الكهل الحديث . كما ان الاسلام قد أخـذ في نفس الوقت بالتجدد بفضل القيمة الديكارتية . ولسوف تزداد هذه الحركـة، التي لا تزال الآن في طور التمام، كلما عرضت للمشاكل بروح علمية ، تلك الروح التي أصبحت العامل الاساسي في تطور التاريخ . وتقوم هـذه الطريقة على اختصار المراحل ، كما تدل التجربة على ان بعض هذه المراحل ليس بالضروري . فلقد اجتازت اليابان ـ التي كانت لا تزال تعيش في ظلمات القرون الوسطى بعد أن فتحت ابوابها للكومودور بري ـ دفعة واحدة المسافة التي كانت تفصلها عن القرن العشرين واجتازت هـذه المرحلـة بصورة علمية منهجية بالتدقيق في ساعات العمل واستخدام الانسان والارض والزمن بصورة علمية. وكذلك يجب على العالم الاسلامي ان يجتاز مرحلة التأخر بتنظيم وسائله واوجه النشاط فيه . ولقد دلته قضية فلسطين على ضرورة ذلك الملحة، كما انها هدته لاتباع طرق جديدة . ولهذا يبدو ان العالم الاسلامي يحاول الآن بدء تجربة جديدة والاستفادة من مضار الماضي واخطائه، والا فقد الدرس ، الـذي القته عليه السنوات الاخيرة، مغزاه . ولقد اصبحت بعض المراحل، كمرحلة النزعة القومية التي كانت تبدو ضرورية ، من مخلفات الماضي بعد ان عـدى عليهـا التاريخ .

العالم الحالي ثمرة انحلال العالم الاستعماري والعالم القابل للاستعمار

الذي شهدناه منذ عشرسنوات . وقد كشف لنا هذا الانحلال عن مغزى التاريخ العميق ، كشف لنا، من جهة،عن وحدة المشاكل والحاجات في العالم ، وابان لنا، من جهة اخرى،عن ضرورة اعادة تنظيم العلاقات بين الشعوب . ولهذا يجب القضاء على كل من النزعة الاستعمارية والنزعة القومية لان النزعة الاستعمارية لم تعد تلائم ظروف الحياة العالمية التي لا يمكن ان تقوم على القوة . فلقد حكم الضمير العالمي على هذه النزعة بالفناء لانها سبب الاضطراب والتأخر والحرب. ولقد استطاع الاستعمار ، حتى الآن ، تهديد حياة المستعمر وضميره ووجوده . فكانت البلاد المتمدنة تغمض عيونها ولا ترى ما يفعل . واما في الظروف الحالية فان الدبلوماسية العالمية امام امرين : اما التحالف مع الاستعمار واما التحالف مع الانسان .

وذلك لانه لا يمكن الانضمام الى نظام انساني اذا كنا مستعمَرين او مستعمِرين .

يتحقق العالم اليوم بصورة شاملة فيسعى الى التكتل وتوحيد مصادره وحاجاته ، فهو بذلك في طريق تحقيق معنى التاريخ في منظماته. ولقد حل محل النزعة الحرة في الانتاج نظام عقلي يسعى لتحقيق الانسجام العام حسب قانون الضرورات الحيوية الدقيق وليس حسب برنامج مبهم نظري ، وعلى العالم اذن ان يحسب حساب هذه الخطوة التاريخية المهمة في تطوره.

ولقد أصبحت الوحدة العربية والوحدة الاسلامية من مخلفات الماضي كما هو شأن الوحدة الاوروبية التي يحاول الساسة بعثها في ستر سبورج .

ولا شك انه لا يمكننا التفاؤل او التشاؤم فيما يتعلق بنصيب السلم من النجاح ، غير انه يبدو ان البلاد لم تفهم معنى المرحلة التي اجتازها العالم

والتي يعبر عنها عنوان كتاب « العالم واحد » بالرغم من أن هذا الكتاب لم يتحدث الا عن الناحيه المكانية من المشكله ، تلك الناحية التي يدركها رجل قطع في بضعة أيام ٣٦٠ درجة من درجات الكرة الارضية المسلحة كما فعل وندل ولكي . ولقد كانت وحدة العالم هذه دائمـا الظاهرة الاساسية في التاريخ ولم تكن الفواصل سوى عوارض وحوادث عابرة. واذا كان ذلك قد غاب عن الذهن الديكارتي فما ذلك الا لان الحضارة التي اشرفت علي تكوين هذا الذهن تجعل بدء التاريخ منذ تأسيس روما كما تجعل بدء الفكر منذ نشوء المجامع في أثينا . وانه لمن الغرابة ان نرى اعظم المفكرين الاوروبيين يعجزون عن تخطي الفكر الهليني . حتى اذا ما تخطوا حدود التراث اليوناني الروماني خيل الينا انهم قد انتقلوا الى عالم آخر .

بيد انه يجب الاشارة، مـع ذلك ، الى ظهور نزعة جديدة بدأت في مؤلفات جينون زهكسلي في دراسته العلمية عـن الاسس المشتركة بين التفكير الصوفي في العالم (١)

ولا تزال هذه الجهود فردية حديثة ، وهي لا تمس الحقيقـة الا في الذروة بصورة لا يمكن معها تحديد مدى تأثيرها في العلاقات اليوميـة والاتصالات المباشرة بين الناس والشعوب ، ومع ذلك فهي، بالاضافة الى ما اشرنا اليه ، تحث الانسانية على حل مشكلتها .

ومهما يكن الامر فان العالم الاسلامي لا يزال في منتصف الطريـق بالنسبة للعالم الجديد . ومهما يكن مدى تأخر انسان ما بعد الموحدين فانه

---

(١) راجع هكسلي « الفلسفة الخالدة» .

يحقق الظروف النفسية لظهور « الانسان الجديد » او « المواطن العالمي » او « الانسان المطلق »، حسب تنبؤ دوستويفسكي، اكثر من الانسان المتمدن:

ولا شك انه يجب عليه بلوغ مستوى المدنية الحالية المادي باستخدام كل مؤهلاته على اعتياد النظام في العهد الذري الذي يسيطر عليه الفكر الصناعي العلمي سيطرة شديدة . غير أن مهمته تظل روحية تقوم على التخفيف من حدة الفكر المادي والانانية القومية .

ولقد طالب اقبال ، حين قام برسم طريق نهضة العالم الاسلامي الروحية، بطابع من التفكير يمكنه من النظر الى الاشياء والمؤسسات فلا يكون هذا النظر بالنسبة لما تؤدية من نفع أو ضرر اجتماعي في بلد من البلدان بل بالنسبة للهدف الذي تسعى الانسانية جميعها لتحقيقه . ولربما ساءت فلسفة اقبال الميتافيزيقية الاذهان التي ضللتها النزعة العقلية فأصبحت ترى ان كل ما لا يمكن قياسه لا يدخل ضمن نطاق العقل . ولا بد من اثارة هذه المشكلة لانها تحدد موقف الانسان في العالم الجديد كما تحدد مستقبل المدنية .

ولكي ندرك التاريخ يحسن بنا اعتماد وجهة النظر الكونية ، فلقد وصل المؤرخ الفرنسي الكبير جوستاف جكيه بعد دراسة فترة أربعة آلاف سنة من التاريخ المصري الى النتائج التالية : « نرى انه متى شق طريق المدنية في تاريخ هذا الشعب سلكته المدنية ولم تحد عنه ، حتى ان الانقلابات السياسية لا تستطيع منعها من سلوك هذا الطريق الذي سلكته. بيد ان الازمات التاريخية الكبرى تمككنا من تعيين بعض المراحل في تاريخ المدنية وادراك التقدم الذي وصلت اليه خلال القرون، وذلك بتقسيم

هذه المراحل الى عصور . »

يبلو اذن أن هذه النظرة التي تشمل فترة طويلة من التاريخ تحيط بضربين من الحوادث المختلفة : فهناك ،من جهة، مدنية تسلك «طريقاً تصاعدياً » وهناك،من جهة اخرى، « انقلابات سياسية » وما يتخللهامن عوارض انسانية كالانتصارات واحتفالات المولد والممات وما يتبعها من آلام .

هناك من جهة خط مستو يجتاز بيسر آلاف السنين ،هناك من جهة ثانية ؛مأساة انسانية وما يتخللها من انقلابات .

ولا يحول هذا التمييز بين ضربين من الحوادث المختلفين تماماً دون الوحدة بينهما ، وذلك لان العلاقة بينهما انما هي علاقة جدلية ، فالانسان هو الشرط الاساسي لكل مدنية كما ان المدنية تحدد باستمرار الوضع. وهكذا تتعقد ابسط الحوادث، اذا ما نظرنا اليها نظرة انسانية، تعقداً له مغزاه .

فالزواج مثلا في مدينة ما حدث تافه . ولا شك ان له مغزاه بالنسبة للزوجين وعائلتيهما كما ان له مغزاه بالنسبة للشحاذ الحقير وذلك لان التقاليد الاسلامية تتيح لهذا الشحاذ تناول وجبة طعام بهذه المناسبة يعيش عليها يوماً كاملا . وهكذا يؤثر حادث واحد في حياة عدد من الناس كما يتعلق بعددمن الحوادث الاخرى المختلفة .

وقد تكون هذه العلاقات في بعض الاحيان دقيقة جداً . فلربما مات رجل في الجزائر لان رجلا آخر قد قام ،او لم يقم، بعمل ما ذلك اليوم في سدني (استراليا) .

وتزداد صحة ما قلناه كلما ازداد تعقد الحادث وتعدى الميدان الفردي او المحلي أو القومي . هناك بعض الحوادث التاريخية التي تتعدى نطاق التفسير العقلي البسيط الذي يعتمد على المعطى الانساني المباشر والمصلحة المادية او الاخلاق او السياسة ، بل يبدو انها جزء من نظام غير عقلي يعجز العقل الديكارتي عن ادراك كنهه .

ويمدنا التاريخ بعدة امثلة على ذلك كحياة تيمورلنك مثلا فان ملحمته تتعدى نطاق الهدف الانساني ، وذلك لان تاريخ هذه الملحمة ، حسب العقل ، انما يقوم ، ولاشك ، على جمع العناصر والتوفيق بينها حسب صلاتها بصورة البطل الرئيسية .

غير اننا لا نعتم أن ندرك بان العناصر العقلية الخاصة بالانسان ومعطياته الشخصية لا تفسر لنا آثاره تفسيراً مرضياً ، لان هذا الانسان لم يكن سوى محارب جعل منه كل من الدين والسياسة والعبقرية الحربية والادارية شخصية معقدة تامة التحديد . ومع ذلك نراه يمتشق حسامه لمحاربة الغزاة الذين راحو يحتلون اوروبا بقيادة توجتميش الصارمة ، كما نرى تيمور لنك لم يمتشق حسامه المخيف لمحاربة الصين ، ارث جده جنكيز خان او لمحاربة الهند ، التي سوف يغزوها خلفه بابر ، بل لمحاربة الامبراطورية العثمانية حيث جمع بايزيد جيشاً مؤلفاً من خمسمئة الف رجل لاحتلال ڤينا : فما الذي دعاه الى هذا المسلك الغريب ؟ لا شك ان الحق الملكي والطمع وسهولة الغلب بدون خطر والشعور الديني ، اي جميع العوامل الانسانية التي تقوم عليها السياسة والغزو الحربي ، كانت في كفة واحدة من الميزان . ومع ذلك رجحت الكفة الاخرى فدحر غزاة

اوروبا كما دُحر جيش بايزيد .

ولنا ان نتساءل عن العوامل الخفية التي عملت على رجحان كفة ميزان التاريخ على هذا الشكل ؟ ولربما كان هذا التساؤل باعثا على الدهشة لانه يتعلق بما وراء الطبيعة (١) .

يجب علينا، كي نفسر الحوادث تفسيراً كاملا تاماً يتفق وفحواها، ان لاننظر الى السببية فيها بل الى غائيتها في التاريخ، فنضطر حينئذ ان نعكس في بعض الاحيان الطريقة التاريخية، فلا نعود بالظواهر التاريخية الى الماضي بل ننظر الى ما تهدف اليه في المستقبل، فننظر الى نهايتها بدلا من النظر الى بدايتها .

ولهذا يجب علينا كي نفهم ملحمة تيمورلنك ان نتساءل عما كان يمكن ان يحدث لو ان توجتميش احتل موسكو ثم فرصوفيا أو ان بايزيد رفع لواءه على ڤينا اوبراين؟

---

(١) يبدو ان ارنولد ج . توينبي قد أثار هذه المشكلة في كتابه المهم عن «التاريخ» الذي ينشر الان . ويشهد على ذلك المختارات التي ترجمت الى الفرنسية عام ١٩٥٣ تحت عنوان : « بين الحرب والمدنية » (جاليمار) ويلاحظ الكاتب الانجليزي (ص١٤٧) عمى تيمور لنك الذى قضى على ما يسميه الكاتب بالمدنية الايرانية حسب قول اسفولد شبنجلر، بيد ان الكاتب لم يلاحظ اهمية عمى امبراطور التتر الرئيسية في سير التاريخ العلم في المستقبل ، وذلك لانه ينظر الى الامر من وجهة النظر الحربية التي تهدم ذاتها ، لان سيف تيمورلنك قد مهد الطريق امام المدنية الغربية الوليدة وما كان يخف بها من اخطار الانحطاط الذي كان يخيم على العالم الاسلامي فهل هو اعمى اذن ؟ او لسنا بالاحرى أمام نظر بعيد للاشياء يتعدى ذكاء تيمور لنك البسيط ؟ (١٩٥٤) المؤلف .

لو حدث ذلك لخضعت اوروبا لسيطرة الاسلام الزمنية ولتغير وجه التاريخ فتذوب النهضة الاوروبية في النهضة التيمورية. لكن هاتين النهضتين تختلف كل منهما عن الاخرى رغم ازدهارهما ، كما ان لكل منهما مغزاها التاريخي .

فلقد كانت الاولى مطلع فجر يشرق على جاليله وديكارت بينما انذرت الثانية بحلول الاصيل الذي يمثل الدولة الاسلامية، قبل زوالها : كانت الاولى بداية عهد جديد ولم تكن الثانية سوى نهاية عهد ولى ومضي. ولهذا لم يكن هناك شيء يحمي العالم من ظلمات الليل الذي راح يخيم ببطء على العالم الاسلامي . فلو أن تيمورلنك اتبع هواه الشخصي لكان في ذلك نهاية المدنية .

ومهما يكن الامر فان فحوى الحوادث التاريخية ليس بسيطاً كما يبدو في نظر من لا ينظرون اليه الا من وجهة نظر فردية او قومية .

فهناك حسب قول اقبال « برنامج عام » يظلعنا على مغزى التاريخ ، وندرك بواسطة هذا البرنامج العام الذي تسير حسبه الانسانية ومدنيتها مغزى الحوادث الكلي الميتافيزيقي .

فلماذا حال تيمور لنك دون بايزيد وتوجتميش من نشر الاسلام في اوروبا ؟ لكي تتم اوروبا المسيحية العمل التمديني الذي لايستطيع القيام به العالم الاسلامي بعدان تقطعت انفاسه منذ القرن الرابع عشر. فتكشف لنا ملحمة الامبراطور التتري غائية التاريخ وذلك لانها تودي لنهاية تتفق واستمرار المدنية وخلودها وتتابع دورانها وتسلسل العبقريات التي تشق الطريق امام التقدم .

تولد دورة تاريخية في بعض الظروف النفسية والزمنية ثم تنمو حتى اذا ما تخطت المدنية الانسانية هذه الظروف توقفت هذه الدورة وبدأت دورة أخرى في ظروف جديدة تتخطاها المدنية أيضا بدورها .

ذلك هو القانون الذي يرسم، عـبر آلاف السنين، طريق الانسانية التصاعدي الـذي تسلكه ببطء ، وهكذا تمتزج غائية التاريخ بغائيـة الانسان .

الخلاصة

صيرورة الإسلام الروحية

يبدو لي بوضوح، في نهاية هذه الدراسة، انها تحتاج لجزء ثان يقوم بتوضيح بعض الجوانب الرئيسية التي لم اطرقها اثناء البحث للمحافظة على المنهج الذي اتبعته .

فلا أقل من ان اشير الى هذه الجوانب تاركاً امر بحثها لمن يريد :

لقد ظل الاسلام جامداً خلال عصور طويلة في الاشكال التي وصفناها فادى ذلك الى قابلية مجتمع ما بعد الموحدين للاستعمار ثم انتهى الامر الى الاستعمار الفعلي . والاسلام اليوم في صيرورة دائمة والمستقبل له . يعني هذا ان النشاط قد دب في تاريخه وعادت اليه الحياة ، وهو يجتاز الآن ظروفاً متقلبة، وتتراءى امامه آفاق جديدة . ولهذا تحتوي كلمة رسالة على هاتين الناحيتين وهما ظروف الحركة وقيام المجتمع الانساني الذي يعيش هذه الظروف على وضع غاية لها ، فهل للاسلام رسالة ؟

يبدو في الحقيقة ان العالم الاسلامي لم يدرك بعد بوضوح مصيره الروحي . وحركة الاخوان المسلمين هي الحركة الوحيدة التي تسعى حتى الآن الى الاستجابة لرسالة من هذا النوع . ومهما يكن شأن الفوضى

الحالية التي تعم العالم الاسلامي فانه يمكن ان نميز فيه نزعتين ليستا من طبيعة واحدة .

النزعة الاولى هي نزعة تاريخية ترجع لقوى داخلية تظهر كفعل ورد فعل بين القابلية للاستعمار والاستعمار نفسه .

ولقد درسنا عناصر هذه النزعة في الحركة الاسلامية والنزعة الحديثة وهذا ما يطبع الاسلام بطابعه الحالي .

واذا كنا لا نستطيع فصل النزعة الثانية عن التطور التاريخي فانها مع ذلك تتخذ شكلا آخر يرجع لانتقال المدنيات بشكل عـالمي، فاذا بمركز الثقل الاسلامي ينتقل من البحر المتوسط الى آسية .

ولا شك ان نهاية عهد البحر المتوسط من اهم المظاهر التي حدثت خلال الخمسين السنة الاخيرة ، فلقد زال العالم الذي كان يرتكز على البحر المتوسط اثر حربين عالميتين وحـل محله عالم آخر يعتمد عـلى مصدرين مختلفين . ويبدو ان العالم الاسلامي يتجه اليوم نحو جاكرتا اكثر من اتجاهه نحو القاهرة او دمشق .

ولهذا الانتقال الى مرحلة اسيوية نتائجه النفسية والحضارية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تقرر صيرورة العـالم الاسلامي ومستقبله كما تقرر تكوين ارادته الجماعية . ولقد ظلت هـذه الارادة حتى الآن مبهمة قد ذابت في مزيج متعدد من العادات والتقاليد والخرافات الـتي تختلف باختلاف المكان والزمان . وكانت تعبر عن نفسها، تارة بواسطة عائلات شريفه لا تتمتع باي احترام في نفس الشعب، وتارة بواسطة معرفة ضيقة . ولهذا كان الاسلام على شواطيء المتوسط ملكياً عنـد

الباشا وملكه ، قبليا بدويا عند الامير العربي او البربري ، عقيدياً منحلا عند الشيخ .

ولقد أدرك الاستعمار الفائدة التي يمكن ان يجنيها من كل ذلك فقوى من سيطرة الاشراف كما قوى من سيطرة هذه الفئة المختارة حسب ادعائهـا وذلك للمحافظة على الاوضاع السائدة التي تعمل على استمرار القابلية للاستعمار .

وتدل نهاية عهد البحر المتوسط على تحرر الاسلام مـن العوائق الداخلية .

ويبدو ذلك بوضوح في الباكستان وجاوة ،وهي بلاد دخلها الاسلام منذ عهد قريب نسبياً . ويعنى هذا انها بلاد جديدة فتية يسيطر فيها الفكر والعمل على سنة العلم المغلق . ولهذا وجب على الاسلام ان يتجـدد وان يصبح فعالا وان يتعلم الحياة من جديد.

لا ينقسم هذا المجتمع الذي يعيش فيه الاسلام الى طبقات تصاعدية بل هو مجتمع شعبي ، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ، فانه يجب عليه ان يتلاءم وعبقرية الشعوب المستعمرة وحاجتها التلقائية الى العمل، وهـذا يبشر بظهور مركب جديد من الانسان والارض والزمن تقـوم عليه مدنية جديدة .

كما انه يجب على الاسلام ان يتلاءم وبيئته الروحية الجديدة وجواره للهند المعقدة ، حيث لا يزال اشعاع تفكير الفيدا قوياً .

يمكننا ان نتصور بسهولة مستقبل ارادة الاسلام الجماعية بعد ان يكون هذا الاسلام قد تخلص مما علق به بعد عصر الموحدين واستقر على

الارض بين جموع تعيش مما تنبت الارض، واشرفت عليه فئة مختارة ترى ان الفكر القرآني لم يعد مرجعاً ثميناً أثرياً بل هو في صيرورة دائمة :

كما انه يجب ان لا نقلل من أهمية الدور الذي يمكن ان يقوم به الاتصال بالتصوف الهندي .

واذا لم يكن جوار الاسلام للفكر المسيحي، في عهد البحر المتوسط قد اغنى الاسلام روحياً فان هذا الجوار لم يدفعه الى التطور .

وذلك لان الاتصال بين الفكرين الدينيين قد حدث في عهد الاستعمار الذي شوه معالم الفكر المسيحي تشويهاً كبيراً في نظر المسلم فحق لهذا المسلم ان يشعر بأفضليته على المستعمر المفترس الذي يدعي المسيحية بالرغم من احتلاله للبلاد ظلماً وطمعاً .

لهذا لم يشعر ، من هذه الناحية ، بأي مركب نقص او اي داع الى التفكير من جديد في ايمانه .

ويمكن ان نرجع هذا البعد الاخلاقي الذي تمتاز به الشعوب الاسلامية التي تعيش على شواطيء المتوسط الى الشعور بهذا الضرب من الكبرياء والاكتفاء الذاتي فيما يتعلق بشؤون دينهم الذي يقارنونه بضرب من المسيحية المستعمرة.

ولقد حدث اتصال الفئة المختارة المسلمة في آسية بالاديان الاخرى في ظروف مختلفة تماماً . وذلك لان الاسلام في هذه البلاد لا يمكن الا ان يشعر بأنه في أرض غريبة قد غزاها وانتشر بين أقلية من سكانها ، فهو يعيش على أرض غزتها قبله اديان اخرى، فالهند بلاد البرهمانية والبوذية. ولهذا نجد الامة الاسلامية نفسها ـ بالرغم من الملايين التسعين التي تبلغها ـ

تشعر أنها وسط خضم من الهنود يبلغ الثلاثماية مليون نسمة .

ويطلع المسلم يومياً على حياة هؤلاء الناس الدينية وهم اكثر سكان العالم تديناً ويعيشون في جو ملتهب من التصوف.

وهذا مصدر انقلاب عميق في نفس المسلم ، فلقد نضج وعي اقبال أمام هذا المشهد وفي مثل هذه البيئة فبلغ عند هذا المفكر الكبير والشاعر الملهم هذا القدر من الذاتية، كما اكتسب الموهبة على التفكير والحساسية والفهم والاحساس بآلام الآخرين .

وليس هذا الحديث المتبادل بين القلب والفكر، الذي افتقدالهانسان ما بعد الموحدين ولم يُبعث فيه حتى الآن على شواطي المتوسط ،اقل ما يمكن ان يتلقنه الاسلام من انتقاله الى الكرة الإسيوية .

ويمتاز المسلم فيجاوة والباكستان بميزتين مختلفتين : وذلك لان الاحتلال الهولندي الذي امتد عدة قرون لم يترك اي متاع فكري ، غير ان الفئة الضئيلة المختارة التي تقوم بمحاربة المرض والامية، التي تكاد تكون مطلقة ، والفساد في مختلف نواحي الادارة والاستبداد الذي اوجده الاستعمار وقد آل به الامر في النهاية الى الالتجاء الى الغابات .. كل ذلك يدل على الاستعدادات الرائعة التي تكمن في عبقرية الشعب الاندونيسي ، فالانسان في جاوة دقيق يحب النظام والتنظيم كما يحب الاطلاع على التفاصيل ، فهو انسان ما هو محسوس ايجابي كما هو انسان العمل والتطبيق واتباع المنهج العلمي ، وأخيراً هو انسان الفنون .

تركت انجلترا في الباكستان هيكلا فكريا لا تنكر قيمته.

وينتمي لهذه الفئة المختارة كل من سيد امير علي، وهو أول مدافع عن الاسلام الحديث واول مفكر فيه ، كما ينتمي اليها السيد محمد اقبـــال تلميذ اكسفورد القديمة، كما هو حال رابندرانات طاغور .

ذلك هو الطريق الجديد الذي يتفتح امام الاسلام .

ويجب أن لا ننسى الاوضاع العالمية التي يمكن أن تتيح لنا فرصاً غير منتظرة لتحقيق الاهداف التي رسمناها . هذا اذا لم تحدث حرب عالميـة تغير معالم الوجود الانساني المعهودة .

باريس – السوربون . ١٩/٣/٥٥

شعبان بركات

فهرست الكتاب

صفحة

٣	اهداء الكتاب
٤	تنبيه
٥	فاتحة الكتاب
١١	الدورة التاريخية
١٩	انسان ما بعد الموحدين
٢٥	الاتصال بين اوروبا والاسلام
٣١	حركة الاصلاح
٤٨	الحركة الحديثة
٦١	العوامل الداخلية
93	العوامل الخارجية
104	فوضى العالم الغربي
122	الطرق الجديدة
١٤٤	تباشير العالم الاسلامي
١٥٨	صيرورة الاسلام الروحية

يصدر قريبا للمعرب :

علم النفس الجنسي

أحدث كتاب في علم النفس الجنسي
ألفه
الطبيب النفسي النمساوي الشهير
أوسفولد شفارتس

الثمن : ٢٠٠ غ.ل